الصديقان
جلجامش وأنكيدو

الصديقان
جلجامش وأنكيدو

قصّة طويلة للفتيان

تأليف: ضحى مهنا
رسوم: سمارا الحناوي

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل

وزارة الثقافة – دمشق

الإهداء

إلى أحبتي:

نهلة

وفرح

وكريم

ورفاقهم

ماما ضحى

مُقدّمة

لماذا جلجامش؟

اخترتُ هذه الملحمة لأنقلها إلى الفتيان والفتيات، لما فيها من قيم ثمينة وكنوز عظيمة من المعرفة والحكمة، يدور محورها حول سرّ الحياة والموت، واللهاث وراء معرفته، هذا الهمّ الوجودي، الذي حيّر الإنسان منذ القديم، ولما يزل.

تقطّعت أنفاسي وأنا أركض وراء جلجامش، وهو يسعى إلى الخلود، يغمره إحساس بتفوّقه الإنساني وعظمته وطموحه للتشبّه بالآلهة، ثم وقعتُ في طريقي وراءه على قِيم زاهية متناثرة في الملحمة كالشجاعة وتصدّيها للظلم، وقيمة المحبة في إيقاظ الإنسان، وقيمة العمل الصالح، الذي لا معنى للحياة من دونه، وثمّة قيمة الصداقة، هذه القيمة الجميلة البهيّة التي أُطلِقَتْ أغنيتُها في الصفحات الأولى من الملحمة، ولم يتوقف إنشادها.

ولكن مَن جلجامش؟

عاش جلجامش في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، وذكرت الوثيقة المعروفة بـ «ثبت ملوك سومر» أنه خامس ملك حكم (أوروك) بعد الطوفان في وادي الرافدين، وذلك عن طريق التثبّت من وجود شخصيات أخرى معاصرة له.

كان ابناً للآلهة ننسون، أما أبوه فكاهن غامض، ومن هنا جاءت الإشارة

إلى جلجامش على أنه مزيج من آلهة وبشر.

دار النص حول شخصية جلجامش النبيلة، وهو يحكي عن مآثره وأعماله البطولية، دون كبير عناية بحركة الجماعات إلّا فيما ندر، لكنني راعيتُ تلك الحركة، فهي من أهداف الحكاية الكبيرة. وقد احتوى النص عناصر أسطورية عدّة لم أقصد إليها لذاتها، وإنما لتوضيح أغراض النص وخدمته.

اكتُشفت الملحمة (كسرات ألواحها الأولى) أواسط القرن الماضي في (نينوى) ضمن أنقاض الملك آشور . بانيبال، وقد شغلت علماء اللغات البائدة ودارسي الأساطير والآداب القديمة، وصدرت لها ترجمات كثيرة إلى الإنكليزية نافت عن العشرة، تُظهر أهميتها وأسبقيتها بين الأساطير الثمينة المختلفة.

وُضعت ملحمة جلجامش لأول مرة في مطلع الفترة البابلية القديمة قبل، أو إبان حكم الملك حمورابي. وقد استفاد النص البابلي من النصوص السومرية السابقة عليه. ولم تكن قد جُمعت في رواية متماسكة واحدة، ثم أضاف إليها النص البابلي روايات وأغنيات شعبية شائعة عن جلجامش وصديقه أنكيدو، ومن بعض الأساطير القديمة كأسطورة الطوفان.

قرأتُ مراراً ملحمة جلجامش، وعزمتُ على تقديمها لأولادنا الفتيان، هدمتُ بعض فصولها برأفة بالغة، لأعيد بناءها ثانية. حذفتُ بعضها، وأضفتُ إليها، لتناسب سياق الرواية المُعدّة للفتيان. كنتُ أمينة، والله أعلم، جاهدة لأنشئ نصاً مفيداً وممتعاً وشائقاً. ولما عدتُ إليه وجدتُ بعض الجمل الموزونة، التي تبدو لأول وهلة متكلّفة، وما هي إلّا للتشبّث بجو الملحمة والسير في جنباتها، حتى إذا عاد الفتى لاحقاً إلى الملحمة الأصلية لم يجد فرقاً كبيراً، وأسمعه يقول: أعرف لماذا حذفت الكاتبة

هذا الفصل، أو أضافت إليه ذاك! وقد يسأل أحد عن سرّ هذه المبالغة، وأجيبه: إنها من سمات الأساطير، كذلك هي فقرات الوعظ، التي هي لاصقة بالأسطورة، وهي تختلط بالواقع، لتقدم زاداً مفيداً للقارئ.

في الملحمة منارات للفتية، وهم يكبرون كلّ يوم في درب الحياة، تعينهم على اختيار أهدافهم وصداقاتهم، وترشدهم في أعمالهم بإشارات واضحة بسيطة دون تبجّح، أو استعلاء.

وأخيراً: أشكر كل مَن كتب عن جلجامش معتزاً مثلي بهذا التراث الراقي البديع، فقد أفدتُ منهم كثيراً، ليخرج هذا العمل الحبيب إلى قلبي.

ضحى

جلجامش والنساء

«مامي، مامي»، «نَنْسون، نَنْسون»، «مامي، مامي»، «نَنْسون، نَنْسون»، صوت طفولي واحد يردِّد: «مامي، مامي»، يتبعه صوت نسائي مجروح «نَنْسون، نَنْسون».

التفتت المليكة «مامي نَنْسون» إلى وصيفتها قائلة:

- مَن يناديني؟

هرعت الوصيفة إلى النافذة، وشهقتْ:

- صاحبة الجلالة! تعالي انظري.

- ماذا هناك؟

- حشدٌ من النساء المتشحاتِ بالسواد، وعلى أيدي بعضهنّ أطفال.

وقفتْ «مامي نَنْسون» وراء النافذة تنظر إلى هذا الحشد الغريب، وهي تتساءل ما الذي جاء به في هذا الصباح النوّار؟!

قُرِع الباب، ودخلتْ امرأة من القصر تُنبئُ مليكتَها بأنّ الأمهات يطلبْن مقابلتها، فقالتْ في نفسها: «الأمهات، الأمهات. هناك أمرٌ جليل حتى تخرج الأمهاتُ من بيوتهن مبكرات».

طلبتْ «مامي نَنْسون» وشاحها، فذكّرتها وصيفتُها بتاجها الملكي. رفعت يدها، وهي تخرج قائلة:

- لا حاجة بي إليه أمام الأمهات. اتركيه لمقابلة الملوك والملكات.

نزلت المليكة على السلم متأنية متمهّلة، ليس عن كِبر وخيلاء، ولكنّ خوفاً رقيقاً تسلّل إلى قلبها، وإحساساً بخطرٍ نخز صدرها، ونزل إلى قدميّها، وتسارعتِ الأفكارُ في رأسها يدفع بعضُها بعضاً.

وقفتْ أخيراً أمام الأمهات، وكانت قد أمرت أن يدخلْن فوراً إلى بهوها الواسع الأنيق. ساد الهدوء بين النسوة، وقد رأين «مامي نَنّسون» تطلُّ بشعرها الرمادي، وقامتها العالية المنتصبة، على الرغم ممّا تحمله من سنين.

ألقتْ «مامي نَنّسون» التحيةَ على الأمهات، وكانت تحيةً كريمةً نديّةً كنداوة ذلك الصباح. أشارت إليهن أن يجلسن، وقبع الأطفال في أحضانهن وقربهن، يسترقون النظر إلى «مامي نَنّسون» المليكة الجليلة الحكيمة، ثم أشارتْ إلى خدمها، فأحضروا ماءً محلّى بالعسل، شراب الملوك لضيوفهم.

كانت تجول بعينيها في الأمهات لعلّها تلتقطُ سرّ حضورهن. ابتسمتْ ابتسامتها الطيبة، وهي تقول:

- أهلاً بالأمهات، أرى الصحة موفورة و...

قاطعتها الأم المسنة «مامي حنون»:

- «مامي ننسون» الصحة موفورة. نعم. ولكن انظري إلى الحزن في العيون. انظري إلى هذه الشفاه المزمومة.

وأشارتْ إلى النساء. كان حزنٌ كبيرٌ يسكنُ العيون، وقد تَعجَّبتْ «مامي نَنّسون» من هذا، على الرغم من أنّ الأطفال في حضون بعضهن، وهم في صحة وردية. زحف القلق إلى قلبها، فقالت متأثرة:

- ماذا هناك يا «مامي حنون»؟

- ابنك يا «مامي ننسون» «جلجامش» العظيم، لا يترك شاباً لأبيه وأمه،

أو زوجاً لبيته.

وتدخلتْ «مامي رحمون»:

- ولا يتركُ عروساً لعريسها.

وأضافت «مامي بيضون»:

- ولا يدعُ أباً لطفلٍ يفرحُ به.

وقالت امرأةٌ تبكي:

- قُتل زوجي شرّ قتلة، كان مريضاً، فلم يلحقْ بالطبول.

رفعتْ «مامي نَنْسون» يدَها تدعكُ صدغَها، وقالت في نفسها: «ماذا أسمعُ؟ لا أفهمُ!»، ثم التفتت إلى «مامي حنون»:

- هل تشرحين لي ماذا أسمع؟

مسحتْ «مامي حنون» عينيها المبتلتين بالدموع، ثم تنهدتْ قائلةً:

- «مامي نَنْسون» الحكيمة الجليلة! أنت أملنا، فخلصينا، رعتْكِ الآلهة.

سكتت قليلاً، ثم أضافت:

- ابنك «جلجامش» العظيم قد صار مصدرَ قلقٍ لنا جميعاً، طبولهُ تُقرعُ قبل الفجر، تدفعُ الرجال إلى العمل المتواصل، ولم يمضِ على نومهم في البيتِ سويعاتٌ، لا إجازة يبذلُها، ولا ساعات عمل يحدّدها، لا اعتراض على مشيئته، وإلّا القتل لصاحبه، هل تصدِّقين، أيتها العظيمة، أنّ لا قصاصَ عنده إلّا الموت؟! إنه لا يأبه لمريضٍ، ولا يرحمُ شيخاً ضعيفاً، بل يسوقهم إلى العمل كالقطيع.

ارحمينا! ليقلْ لنا «جلجامش» العظيم متى ينتهي هذا الجبروت. سننتظرُ ونصبرُ، أليس ثمّة نهايةٌ لهذا الاستبداد والظلم؟ بناتُنا فزعاتٌ



منه، لا يدخلْنَ بيوت الزوجية، قبل أن يدخلْنَ عليه، قد حَشَدَ كثيراً منهن في قصره، للغناء والرقص والأنس. أطفالُنا، يا «مامي ننسون»، نسوا آباءهم، لا يرونهم إلّا وهم نيام، و«جلجامش» يشغلُهم بأعمالٍ لا تنتهي!

نهضتْ «مامي نَنْسون» مهمومةً مما سمعتْ، وقالت في نفسها: «ماذا أسمعُ؟ هل تتململُ الرعيّةُ من راعيها؟ هل تبغي به شراً؟ لقد نقلتْ إليَّ الأمهات أسرار الرجال، ونيّاتهم!».

سارتْ إلى النافذة العريضة، وأزاحتْ الستائر، فتدفقتْ الشمسُ إلى البهو. نظرت «مامي نَنْسون» بعيداً، فرأت السور النحاسي يحضن مدينة «أوروك»، وهو يلمعُ تحت الشمس. التفتت إلى الأمهات قائلةً:

ردّدت النسوةُ:

- «جلجامش» العظيم... «جلجامش» العظيم.

رجالنا... رجالنا...

وسألت «مامي نَنْسون» ثانية:

- هل تجرّأ عدوٌّ على غزو مدينتنا؟

أجابت النسوةُ:

- لا، لا...

- مَنْ قضى على عظماء «أريدو»؟

- «جلجامش» العظيم.

- مَنْ شجّعَ الزراعةَ والحرفَ والتعدين، وحتى الموسيقا؟

- «جلجامش» العظيم... «جلجامش» العظيم.

- كيف تكون أبوابُ المنازل في الليل؟

- مُشرعةً مُشرعةً.

- بفضلِ مَنْ؟

صاحتِ النسوةُ معاً:

- بفضل «جلجامش» العظيم.

- هل من جائعٍ في الطريق؟

- لا... لا... الخيرُ وافرٌ... الخيرُ وافرٌ.

وفي الحقيقة، يحكي التاريخُ أن «أوروك» قد بلغتْ شأناً عظيماً من الحضارةِ والرقي. سبقتْ حضاراتٍ قبلَها بعد أن أضافت إليها، فأبدعتْ. ازدهرت الزراعة وغيرها. وتحكي الحكاياتُ أن الأرضَ في عهد «جلجامش» قد أعطتْ أفضل غلالها بفضل تشجيعه لها. وفي العمارة ارتفعَ المعبدُ الأبيضُ المخصصُ لـ«آنو»، كبير الأرباب، فوق منصةٍ عاليةٍ، تُعطي الناظر إحساساً بالفخامةِ والجلالة، كذلك كان معبد «إنانا». وكانت زقورة «آنو» قد ارتفعتْ عالياً، برجاً مدرّجاً للتنبؤ ودراسة الفلك. وبلغتِ الكتابةُ في «أوروك» نُضجاً بالغاً بالخطِّ المسماري. ولم يقف «جلجامش» عند هذا، فقد شجَّع الرياضة والقوة البدنية، وكانت حلباتُ المصارعة تُعقد في مناسبات الأعياد المختلفة. وبدتْ «أوروك» بحقٍّ بهيّةً عزيزةً منيعةً بحضارتِها القوية المتقدمة على ما قبلها من حضاراتٍ، وعلى ما حولها من أقوام.

عادتْ «مامي نَنّسون» تنظرُ إلى «أوروك»، ثم تابعتْ:

- ها هي ذي «أوروك» بديعة، حولَها المزارعُ والمراعي. تتوزّعُ في جنباتِها حلقاتُ التعليم وخاناتُ الاستشفاء.

وصاحت النسوةُ:

- الحق تقولين... الحق تقولين.

واستدارت «مامي ننسون»، وهي تحاولُ ألّا تظهر غضبَها:

- إذاً ماذا تبغين؟

فانطلقت امرأةٌ تقولُ:

- نحتاجُ إلى الكرامةِ والفرح والهناءة يا «مامي ننسون»، لقد خلَقَتْنا الآلهة لنحيا. نعم. نحيا ونعمل ونبتهج غير خائفين. نحتفلُ بجمال «أوروك» وقوتها، ونفرحُ مع أحبائنا في أعياد الحياة، ونزيدها غنىً ومتعةً وجمالاً، ثم نعودُ إلى أعمالنا بحيويةٍ ولهفةٍ.

كانت «مامي ننسون» قد استدارت كلياً نحو مَنْ تطلبُ الكرامةَ والهناءة. كانت شابةً فتيّةً تماثلُ «مامي ننسون» في قامتها العالية، تكادُ تسعُ العالم بعينيها السوداوين، لكنّ همّاً ثقيلاً كان ينزرعُ فيهما. كانت تحملُ على يديها طفلاً جميلاً وافرَ الصحة، ويلبدُ قربَها طفلٌ آخر، ذكّر «مامي ننسون» بابنها «جلجامش» لمّا كان طفلاً.

تركت «مامي ننسون» النافذة، وعادتْ إلى مقعدها، تأملتْ المرأةَ طويلاً، كانت الشابةُ ثابتة النظر، ولمّا رأتْ مليكتها تتأمَّلُ طفلها، قرّبتْهُ أكثر من صدرها، ومدّ الطفلُ يدَهُ إلى صدر أمه، فأخرج ثديها وألقمه فمه، وراحَ يرضعُ بنهمٍ، وهو يتأمّلُ «مامي ننسون».

ابتسمتْ المليكةُ، وهمستْ في أذنِ وصيفتها. خرجت هذه سريعاً، وعادتْ تحملُ آنيةً من الفضةِ عامرة بالبلح، جعلتِ الأطفالَ يتركون أثداء أمهاتهم، ويتطلّعون إليه. همسَ طفلٌ لأمه: «إنه لا يشبهُ بلحَ نخلتنا»، وردّتْ هامسةً باسمةً: «إنه البلحُ الملكي. انظر إلى لونه الذهبي».

خاطبتْ «مامي ننسون» أمَ الطفل الشابة:

- ما اسمك؟

- مامي أولا.

ثم تطلّعتْ «مامي ننسون» إلى الطفل تسألُهُ:

- وأنتَ ما اسمك؟

أجابَها الطفلُ سريعاً، وهو يتطلّعُ إلى البلحِ الشهي:

- «دوموزي»... «دوموزي»، وهذا أخي «بابل». هل أستطيعُ أن آخذَ بعض البلح؟

قالت المليكةُ بلطفٍ ساحرٍ:

- تعالَ خذْ ما تشاء.

اندفعَ «دوموزي» بجرأةِ الأطفال. أمسكتْهُ أمهُ من ثوبه، فانتزعَهُ منها.

وضعتِ المليكةُ الطفلَ في حضنِها، طلبتْ منه أن يأكلَ من البلحِ ما يريد، فقال:

- لا شكراً. هذا يكفي، ستعاقبني أمي إذا أظهرتُ شراهتي أمام المليكة العظيمة، وقد تدّعي أنها لم تُحسن تربيتي، فتضربني.

ضحكتْ «مامي ننسون» من فطنة الطفل، ثم أشارتْ إلى وصيفتها لتوزّعَ البلحَ على الأطفال الآخرين، فحدثتْ جَلَبةٌ خفيفةٌ من إقبالِ الأطفال، وزجْرِ الأمهات.

قالت المليكةُ في نفسها، وهي تحضنُ الطفلَ بحنانٍ:

«إنه طفلٌ جميلٌ قويٌّ، يشبه «جلجامش» في صغره».

سألتِ الطفلَ:

- هل لك أخٌ غير «بابل»؟

- لا، تقولُ أمي إنها لن تنجبَ غيرنا، وأبي يلحُ عليها، وأحياناً يقسو.

ثم تطلّع نحو أمه، وقرّب فمه من أذن المليكة:

– تقول إنها لن تُنجبَ طفلاً آخر نكايةً بابنك «جلجامش»، هي لا تحبُّه، لكنَّها تُحبُّك أنتِ كثيراً. ابنك لا يدعُ أبي يرتاح في بيته ليلةً كاملةً. أبي كبيرُ البنّائين. ألا تعلمين؟

سكتَ، وهو يلوكُ البلحَ بتلذّذ، ويتأملُ أخرى في يده. قال بعد قليل:

– وأنا لا أحبُّ ابنكَ أيضاً، إنه يشغل أبي عن اصطحابي للسباحة في نهر الفرات، على الرغم من وعوده المتكررة. دائماً دائماً يكلّفه ببناءٍ جديد... أف... أف... سأكبرُ وأغالبُ ابنك.

همستْ «مامي ننسون»:

– هل تحبُّ السباحةَ في نهر الفرات؟

– أنا متشوقٌ إلى السباحةِ في نهر الفرات، لكنني لم أسبح فيه مرة، وأمي لا تُحسن السباحةَ، وتخافُ عليّ أن أنزل الفرات وحدي.

– وأمُكَ لماذا لا تحبُّ «جلجامش»؟

– ألم أقلْ لكِ؟ إنه لا يتركُ أبي في البيت، لقد وعدها أن يصحبها إلى السوق، ليشتري لها قرطاً، فهي صاحبةُ أجمل أذنين، كما سمعتُه يقول، وحتى الآن، لم يستطع أن يفي بوعده، ابنك هو السبب.

– إذاً تريدُ أن تكبرَ، لتغالبَ «جلجامش»؟

– نعم، سأغالبُهُ، لكنني سأصبح بنّاءً عظيماً مثل أبي.

– سُمعت جَلَبةٌ خارجَ القصر، لقد عاد «جلجامش» العظيم من جولته، وانتقلتِ الجَلَبةُ إلى النسوة، فقفز «دوموزي» من حضن الملكة، وحطّ سريعاً قرب أمه.

انتشرتْ همهمةٌ، وسرى خوفٌ، وتطلّعتِ النسوةُ إلى «مامي ننسون»، فرأينَها مطمئنةً واعدةً بحلٍّ المشكلة. رفعتْ «مامي رحمون» رأسها، وخاطبت المليكة:

- أيتها الأم الحكيمة العظيمة، أرجو ألّا تخيّبي رجاءَنا، وألّا تديري ظهرك لنا. أنت أملُنا.

قالت «مامي ننسون»:

- لا تخفن. سأصلحُ الأمرَ!

ونظرتْ إلى الأطفال، ثم توقفتْ عند «دوموزي»، تابعت:

- لكن أنجبن أبناءً أقوياء، كهذا الطفل، وأكثرن من البنين والبنات.

وراحتْ عبارة «دوموزي» ترنُّ في أذنها: «سأغالبُ ابنك متى كبرتُ».

انتظرتْ «مامي ننسون» في جناحها طويلاً، ريثما يخرجُ الساهرون من جناح ابنها. وكانت المليكةُ الحكيمةُ قد قضتِ النهار كلّه في التأمُّل والتفكير، كان الحزنُ كبيراً حقيقياً في نفوس النسوة، وتردّدتْ في أذنيها كلماتُ الفرحِ والهناءة والرحمة والكرامة، وكلماتٌ عن ساعاتِ العمل وتحديدها.

ابتسمتْ وحدَها، وهي تتذكرُ «دوموزي» الصغير يردّد: «سأغالب ابنك!».

سارت إلى جناحِ ابنها، ولما سألت الحاجبَ عن «جلجامش»، أنبأها أنّ العظيم قد خرج في جولةٍ ليليةٍ، والحفلُ لمّا ينته.

أطلّت «مامي ننسون» من النافذة، فطالعتْها «أوروك» الجميلةُ هاجعةً مطمئنةً، فالحرّاسُ يقظون حولها، همست: «لكن ما الذي يُقلق «جلجامش»، ويجعلهُ قاسياً؟».

سمعتْ بعد قليل همساً تحت النافذة، أطلّت ثانيةً، فرأتْ «جلجامش» يحثُّ الحارسَ على اليقظةِ، نادتْه:

- «جلجامش» العظيم!

رفعَ «جلجامش» رأسَه، فرأى «مامي ننسون» تلوّحُ لهُ. نهضَ وصعدَ إليها، كان كبيراً قوياً كالثور، ترتفعُ قامتُهُ إلى ثمانيةِ أمتارٍ، وأما صدره العريض، فيتجاوز عشرةَ الأشبار.

باركت «مامي ننسون» ابنها، أما «جلجامش»، فسارعَ إلى تقبيلِ أمه. قبّلتْه بدورها، ورأتْهُ قلقاً على الرغم من قوّته. عاتبته قائلةً:

- مضى وقتٌ طويل لم نجلس فيه معاً.

- العملُ كثيرٌ يا أمي! إنه لا ينتهي، وعليّ أن أتابعَ كلّ أمرٍ بنفسي.

- حولك أمناء ووزراء تستطيعُ أن تعتمدَ عليهم.

- إنهم لا يُحسنون إلّا هزّ الرؤوس والطاعة.

قالت «مامي ننسون» في سرها:

«إنه الخوفُ من بطشك، أيها العزيز، لم أكنْ لأربّيك، وأعهد بك إلى الأدباء، إلّا لتحبّك الرعيةُ دونَ خشيةٍ منك».

تركَها «جلجامش»، وذهبَ إلى النافذةِ العريضةِ، يتطلّعُ بعيداً قلقاً مهموماً. عرفتْ «مامي ننسون» أنّ ابنها يعاني الوحدة، فلا صديقَ بجانبِه. «جلجامش» يقتلُ وحدَتهُ في تلك الأعمال التي لا تنتهي، وهذه القسوةُ التي لا ترحمُ أحداً.

نظرتْ حولَها، ورأتْ آثار اللهو، فعرفتْ أن ابنها ضجر حتى من سهراتهِ اللاهية.

نادتْهُ أمُّهُ، فأقبلَ إليها، جلسَ قربَها، مسحتْ على رأسِه، وأمسكتْ بيده تقول:

- «أوروك» بهيّةٌ غنيةٌ بفضلك، أيُّها العظيم، لماذا القلق إذاً؟

لم يُجبْها «جلجامش»، وسادَ صمتٌ بينهما، فتابعتْ الأم:

- أمس، رأيتُ زوجَك «مامي ننشابور» تبكي، وقد رفضتَ دعوتَها إلى طبقٍ حلوى صنعتْه لك بيديها الجميلتين، وسمعتُ من نافذتي ابنك، وهو يناديكَ لتلعبَ معه، فنهرتَه وتركتَه حائراً.

حضنتْ «مامي ننسون» رأسَ ابنها بحنان، ثم قالت:

- أيُّها العظيم! أهلُ بيتك في حاجة إليك، فلا تهملهم، كما يحتاجُ الرجالُ الآخرون إلى بيوتهم، فارحمهمْ من العمل المتواصل، وأفسحْ لهم أوقاتاً يرتاحون فيها، ويمرحون.

وانتظرت المليكةُ جواباً من «جلجامش»، لكنَّه لم يتحركْ، وبعد قليلٍ علا شخيرهُ، كان قد غفا، فانسحبتْ «مامي ننسون»، وهي تفكرُ، وتطيلُ التفكير، ثم اهتدت إلى أمرٍ، وهي الحكيمةُ العليمة.

أنكيـدو نـدُّ جلجـامـش

توجّهت «مامي ننسون» إلى آلهة الخلق «أورورو»، ودعتْها إلى أن تخلقَ رجلاً آخر في قوةِ «جلجامش» وصلابتِه، يشبههُ في طموحِه وهمّتِه، فربما وجدَ فيه صديقاً يساعدُه على الحكمِ والعمران، ويبعدُه عن البطشِ، الذي يأخذُ به رعيّته. ورنّتْ في أذنِها ثانيةً عبارة «دوموزي» الصغير: «سأغالبُ ابنك!»، فهل تنفعُ المغالبةُ، مغالبةُ الصديق لـ«جلجامش»؟

كانت دعواتُ «مامي ننسون» إلى آلهة الخَلْق حارةً صادقةً، فقد وجدتِ الآلهةُ في الدعواتِ حبّاً لـ«جلجامش» ورعيّته معاً، لقد أنجبتْ «مامي ننسون» ملكاً قوياً يرعى شؤون قومه، لكنها لن ترضى أن يكون ابنها جبّاراً قاسياً.

أمسكتْ آلهةُ الخلق «أورورو» بحفنةِ طينٍ مجبولةٍ بمياه الأمطار، فشكّلتْها بأناةٍ وحكمةٍ، ثمّ رمتْها في البراري، فخرجَ منها «أنكيدو» الرجلُ القويُّ، الذي لا يعرفُ شيئاً عن حياةِ الإنسان، ترعرعَ بين حيوانات البراري، فاكتسبَ بعضَ صفاتها، أخذَ من الثيرانِ ضخامتَها وصلابتَها، وأخذَ من الغزلانِ جمالَ عيونها، واكتسبَ من الطبيعةِ نقاءً زرعهُ في قلبه. أكلَ مما تأكلُ الحيواناتُ، فقويَ بُنيانه، وامتدّ طولاً وعرضاً.

استلقتْ آلهةُ الخلقِ «أورورو» على أريكتها الطويلةِ المخمليّة راضيةً نشْوى، وهي تنظرُ إلى الأسفل، حيث «أنكيدو» قد شبَّ جميلاً قوياً عالياً، ورأتْ فيه شيئاً منها. تطلّعت نحو المدى، حيث «أوروك جلجامش»، فابتسمتْ متفكرةً:

«كيف يقفُ «أنكيدو» البدائي، الذي لم يعاشر سوى الحيوانات، في وجهِ «جلجامش» الحضاري، الذي بلغتْ مدينته شأواً عظيماً من الرقي؟».

تقلّبت «أورورو» على جانبها الآخر، ونظرتْ إلى الأسفل تبحثُ عمّن يأخذُ بيد «أنكيدو» يهذّبُهُ، ويرمي عنه خشونتَهُ الفجّة البدائية، لم تجد له إلّا «راعية الحب»... ولكن مَنْ هذه؟

أنكيـدو مع راعيـة الحـب

كانت «راعية الحب»، وتدعى في الأصل «ديالا» ترعى قطيع القوم مع الرعاة، وقد لفتتِ الأنظارَ إليها بشجاعتها ويقظتها وأمانتها، دون أن تَفقدَ شيئاً من عذوبتها ورقّتها. لم تضيّع يوماً بهيمةً، ولم تشردْ لها شاةٌ، وما اقتربَ منها ذئبٌ. كانت تصحبُ قطيعَها منذ الفجر مع الرعاة إلى السفوح، أو الوديانِ القريبة، حيث ينمو الكلأ نضيراً، ويسيلُ الماء رقراقاً وفيراً.

ما وقفت قطٌّ في وجه قطيعها، إنْ هو أحبّ الرعي هناكَ، سارتْ معه تهديه متأنّيةً حليمةً، تنفخُ في مزمارها الحنون، فتبدّد الوحدة، وتأنس الخراف، حتى بدت خرافُها سمينةً هادئة.

كانت تمازحُ الرعاةَ وتتعاون معهم، وقد ترعى لهم قطعانهم إن لمستْ فيهم ضيقاً وتعباً، وكثيراً ما كان يتحلّقُ حولها أطفال قومها حين عودتها، فتباسطُهم في الحديث وتمازحهم. كانت تجلس معهم حيناً تسحرهم بقصصها الماتعة ولطفِها العذب، تساعدُ أمهاتهم في الأعمال بمحبةٍ، فصارت بهجةً للقوم، وسُميت بـ«راعية الحب»، فقد كانت حياتها تمضي على درب المحبة، لا تحيد عنها، وتستعينُ بالغناء والمزمار على زرعِ هذه العاطفة النبيلة في النفوس. كانت تقول دائماً: «بالمحبة يكبرُ الصغارُ وتنمو عقولهم، ويهدأُ الكبارُ، وتتآلفُ قلوبُهم، وتلطفُ حركاتُ الجميع، وأما الغناءُ، فهو يقوّي النفوسَ ويزرعُ فيها الأملَ وحبَّ العمل».

كانت وحدها، يوماً، مع قطيعها، الذي ابتعد بها عن الرعاة، فوجدت نفسها في خلاءٍ أخضر فسيح ساكنٍ، وراحتْ تتأمّلُ ما حولَها في خشوعٍ عميقٍ. نزلتْ إليها «أورورو»، آلهة الخلق، على غيمةٍ بنفسجيةٍ ترتعشُ أطرافُها بضوءٍ ذهبيٍّ. وقفتْ فوقها وأمرَتْها قائلة:

–خذي بيد «أنكيدو» حتى يخلع عنه ثوب البراري الخشن المتوحش.

ارتبكتْ «راعية الحب» في البدء، وداخلها الهلعُ، ولبستها الهيبةُ، فطمأنتها «أورورو» قائلة:

–أوقظي بحبِّك وعنايتك الإنسان النائم في «أنكيدو».

ترددتْ راعيةُ الحب لحظاتٍ، ثم ابتهجَ قلبُها بهذه المهمة الكبيرة الجميلة. عادت بقطيعها إلى قومها، واستأذنتهم لتغيبَ مدةً، ثم مشتْ إلى الغابة، حيث أشارت لها «أورورو».

عرفتْ راعيةُ الحب أنّ «أنكيدو» سيأتي وقت العصر مع الحيوانات، ليشرب من نهر الفرات. لمحتْه قادماً، فارتفعَ صوتُها بالغناء، وكانت صاحبةَ صوتٍ رنّان يدخلُ القلوب قبل الآذان. رآها «أنكيدو» من بعيد، فجذبَهُ صوتُها المديد.

وصل «أنكيدو» ضفةَ النهر تحيطُ به حيواناتٌ مختلفةٌ، فانبطحَ يغبُّ من مائهِ، كما تفعلُ الحيوانات، ثم وقف يتأمّلُ بريبةٍ راعية الحب، وهي تُطلقُ موسيقا عذبةً من مزمارها الحنون. تقدّم منها، وهو يتساءلُ: ما تكون هذه المخلوقة؟ أهي غزالة؟ لا...

ابتسمتْ راعيةُ الحب، وحيّتْ «أنكيدو» بعد أن زايلتْها قشعريرةُ الخوفِ من مظهره، كان طويلاً ضخماً، قد كسا الشعرُ الغزيرُ جسمه.

فتحتْ راعيةُ الحب صرّة طعامها، وتناولتْ خبزاً وجبناً، أشارتْ إليه أنْ يشاركَها في طعامها، فأقبلَ عليها، وأمسكَ بالخبز والجبنِ، وحشرهُ لقمةً واحدةً في فمه، فكاد يغصّ ويختنق.

رآها تقسِمُ قطعةَ جبنٍ صغيرةٍ، تلفُّها بلقمةٍ من الخبز، ثم تضعُها في فمها، تلوكُها على مهلٍ، ففعلَ مثلَها بعد أن أشارت إليه أن يحذو حذوها. شربتْ من طاسة الماء رشفاتٍ، ثم ناولته إياها، فشربَ الماءَ دفعةً واحدةً، وسال منه على ذقنه وصدره.

قامت الراعيةُ إلى النهر، وملأتِ الوعاءَ ماءً، ثم عادت إلى موضعها، ترشفُ منه، و«أنكيدو» يراقبُها، مدّ يدَهُ إلى الطاسة، وشربَ الماء رشفاتٍ، ثم أعادَها كما فعلتْ راعيةُ الحب. ابتسمتْ له، فلانتْ قسماتُ وجههِ وتبسّم لها. قشّرت له الرمّانَ، وأطعمتْه، فأكل، وهو ينظرُ إليها إعجاباً وعَجَباً، ثم طلبتْ إليه أن يقطفَ لها بلحاً من نخلة فوقها، فتسلّقَ النخلةَ كالسهم، ومَلَخَ غصناً كبيراً، عليه عناقيدُ، رماه قربَها، فهزّتْ رأسَها مستنكرةً، وهي تعبِّرُ عن حزنها، قالت لهُ:

- كان يكفينا عنقودٌ صغير!

ظهَرَ القلقُ على وجهِ «أنكيدو»، لكنّ الراعية سرعان ما ابتسمتْ، فاطمأنّ.

رأتْ قذارتَهُ وشعرَهُ الأشعث، فسارتْ إلى النهرْ تسبحُ فيه، وهي تغنِّي، فلحقَ بها وسبحَ معها. غسلتْ له شعرَ رأسِه، وتناولتْ من النهرِ حجراً خفيفاً، فركتْ به ظَهْرَهُ، ودعتْهُ إلى أن يفركَ جسمَهُ كما تفعلُ هي.

خرجا من النهر، فسرحتْ له شعرَهُ، وقصّتْ أظفارَهُ الطويلة، ثم شقّتْ ثوباً لها ليسعَ جسمَه الضخم. مشتْ معه في الغابة، وهي تمسكُ به، ودعتْهُ إلى الغناء. بدأ بحشرجة مخيفة، ثم سكتَ، لكنّ الراعية استعادتْه وغنّتْ



أمامه، فرددَ وراءها ما غنّتْ. أثنتْ عليه، وانبسطَ هو، وانطلقا يغنيان معاً.

مساءً كانت الراعيةُ قد أضرمتْ ناراً، لتشوي أرنباً اصطاده «أنكيدو». نظفتِ الأرنبَ، ورمتْ محتوى أحشائه مع فضلاتِ الفاكهة في حفرةٍ صغيرةٍ، حفرتها بعودٍ، ثم ردمتْها، وكان «أنكيدو» يتابعُها، وقد بهرتْه لطافتُها ونظافتُها.

أطعمت الراعيةُ «أنكيدو» من الشواء، وأكلتْ معه، ثم هالتْ فوق النار تراباً أطفأها. راحت تغنّي ثانية لـ«أنكيدو» في ضوء القمر، ثم حكت له عن الرعاة الذين يعيشون هناك، حدّثته عن مزاميرهم التي تُؤنس قطعانَهم، وزرعتْ في نفسه الاطمئنان إلى الرعاة، فهم ذوو نفوسٍ صافية، لا يلحقون الأذى إلّا بمَن يعتدي على قطعانهم من الذئاب.

دعتْهُ إلى مرافقتها إليهم بعد أن طلب جبناً ليأكله، فقد نفد ما معها من أجبان. تردّد «أنكيدو»، فطمأنته الراعيةُ، ورأتْ أن تطيل مرافقته مدة من الزمن، قضاها «أنكيدو» برفقة الراعية يأكلان مما تجود به الغابةُ من طعام. كانت أمّاً في عطفها وحنانها، ورفيقةً مخلصة في صدقها وحبها، فأنس إليها «أنكيدو»، ولم يعد إلى الحيوانات قط.

أطلقتْ «راعيةُ الحب»، في إحدى الليالي، حنجرتَها، فغنّتْ أغنية «أوروك» المدينة الجميلة الفزعة. حكتْ لـ«أنكيدو»، وهي تغني، قصة «جلجامش»، حدّثتْه عن عظمتهِ وقوتهِ وخيره الذي عمّ البلدان، ولم تنسَ أن تحكي له، عبر أغنيتها، عن بطشه الذي ملأ قلوب الرجال والولدان، فاستنكرَ «أنكيدو» من «جلجامش» هذا.

وراحتْ «راعيةُ الحب» تؤكدُ له، في أغنية «أوروك»، وهي الخبيرة ورسولة الآلهة، أن قسوة «جلجامش» لن تولّد إلّا قسوةً ونفوراً من رعيته، على الرغم

من عظمته وعلمه وخيره، وأن لا حاجة له إلى مثل هذا البطش، وأن الرحمة في الملك لا تنتقص من هيبته أمام رعيته.

عادتِ الراعيةُ، في الأيام التالية، إلى «أنكيدو» تدعوه إلى زيارة الرعيان، وهي تمشي في خطّتها للسير به إلى «أوروك» كما خططتْ لها الآلهةُ، وهي تغريه بالجبن والصحبة الطيبة.

سارتْ معه، واستقبلَها الرعاةُ عند مشارفِ خيامهم. رحّبوا بها وبضيفها. طبخوا الطعامَ وحملوا أقراصَ الجبن الذي يحبُّه «أنكيدو»، فأنسَ إليهم وأحبّ نفوسهم الكريمة، حتى إذا جاء الليلُ لحظَ «أنكيدو» أنّ الرعاةَ لا ينامون جميعاً، وإنما يتناوبون على حراسةِ القطعان من الذئاب، وهي كثيرةٌ في هذه البراري الواسعة، والليالي المظلمة، فأبى «أنكيدو» أن ينام، وبقي ساهراً مع حرّاس القطعان. شمَّ رائحةَ الذئاب وغدرها، وهي تتقدّمُ نحو القطعان في أواخر الليل البهيم، فهبَّ يواجهها، وقتلَ كثيراً منها في تلك الليلة، والليالي التالية، ولم يعد الرعاةُ يلمحون الذئاب إلّا من بعيدٍ، فتعلّقوا بـ«أنكيدو»، وسكنَ هو إليهم، وراحَ يعايشهم، ويطّلع على حياتهم البسيطة، وقوانينهم الواضحة العادلة، فتفتّح إدراكه، ونما لامعاً، وبدأ الإنسانُ فيه يستيقظ.

عاد أحدُ الرعاة يوماً من «أوروك» بعدما باع فيها خرافاً. كان الراعي مغتماً مهموماً، فتحلّق حوله الرعاةُ بينهم «أنكيدو»، قال الراعي:

– كان «جلجامش» يتجوّلُ في السُّوق، فوجدَ بائعاً يغشُّ في الكيل والميزان، فهجمَ عليه، وراح يضربه حتى قتلَه. دبّ الرعبُ فيمن حوله، وبكى أطفالُ البائع الغشّاش، وهجمتْ امراته على «جلجامش» مفجوعةً بما أصاب زوجها. عاتبتْه المرأة، عاتبتْ «جلجامش» العظيم، وتمنّتْ عليه لو أنه حبس زوجها،

أو عاقبه، دون أن يقتله، فليس الموت عقاب كل غلطة.

قال راعٍ:

- الحق ما قالته تلك الزوجة.

وتابع آخرُ:

- متى يتوقفُ «جلجامش» عن قسوته؟ إن تعليمَ الأمانة والعدل والنزاهة لا يحتاجُ إلى القتل!

سمعَ «أنكيدو» ما دار حوله، فثارتْ نفسُه، وعزمَ على المُضيّ إلى «أوروك» ليغالب «جلجامش» العظيم، ويثنيه عن بطشه.

أنكيـدو أمـام جلجامـش

سارَ «أنكيدو» في شوارع «أوروك»، فوقفَ الناسُ يسألون عمّن يكون هذا الإنسان، الذي يسير بهامة عالية عريضة، ونظرةٍ ثابتةٍ عليمة. سأل «أنكيدو» أحدَ المارة أين يجد «جلجامش» العظيم، فأجابهُ الرجل، وهو يغالب فضوله:

- سيخرج «جلجامش» العظيم من معبد الصلاة بعد حين، هناك.

وأشار له بيده نحو المعبد الجليل.

تابع «أنكيدو» سيرَهُ وسطَ فضولِ المارةِ ودهشتهم، ثم وقفَ أمامَ المعبدِ ينتظرُ خروجَ «جلجامش»، ووقفتِ المارةُ معه.

تقابل الرجلان، كانا في قامة واحدة، قويين عظيمين. نَظَرَ كلٌّ منهما إلى الآخر ثابتاً متماسكاً. لم يطقْ «جلجامش» أن ينظر إليه واحدٌ مثلَ هذه النظرة، فأمسك به، قاومَه «أنكيدو» بشجاعة، حبستِ الجموعُ أنفاسَها، وهي تنظرُ إلى مغالبتهما، مال «جلجامش» تحت ضغط «أنكيدو»، فارتجفت الجموعُ من قوة الجبّار الجديد على صغر سنّه. وما لبث «جلجامش» أن انفلتَ من خصمه، وقبضَ عليه وطرحَه أرضاً، ثم وقفَ فوقه، وبقي «أنكيدو» ثابت النظر والقلب، و«جلجامش» يغرزُ فيه نظراتِه الغاضبة، وهو يفكِّرُ مَنْ يكون هذا القوي الصغير!

وفجأة، دفعَ «أنكيدو» «جلجامش» الذي بوغت لحظةً، ثم تماسك، لكنَّ «أنكيدو» كان قد قفزَ عن الأرض خفيفاً، واندفعَ نحو خصمه، فتماسكا



بالأيدي القوية، مالا معاً، ثم استقاما، ليعودا ثانيةً إلى التدافع، واستطاعَ «أنكيدو» أن يشبك إحدى ساقيه بين ساقي «جلجامش»، ثم دفعه، فترنَّحَ وسقطَ وسطَ شهقاتِ الجموع وخوفها.

ونهض «جلجامش» مندفعاً، وقد جحظت عيناه من الغضب، وهو يطلق صيحاتِه المدويّة الغاضبة، وهجمَ على «أنكيدو»، فتصدّى له هذا قوياً شجاعاً، وتصارعا وتغالبا وتقلّبا على الأرض، ثم عاد كلٌّ منهما يقفُ في وجه الآخر جباراً، وعادتِ الأيدي يُمْسِكُ بعضُها بعضاً، والنظراتُ تتشابكُ متحديةً، لكنَّ ثورةَ الغضبِ ما لبثَتْ أن هدأَتْ في نفس «جلجامش»، وهو يتطلّع إلى غريمه، فتركه واستدار خارجاً، وهو يتمتم: «ما أعظم فتوّته وشجاعتَهُ!».

ناداه «أنكيدو»، فالتفتَ إليه «جلجامش»، مدّ «أنكيدو» يدَهُ يباركُ قوتَهُ وصلابته، ثمّ وقف يعرضُ على «جلجامش» صداقةً أبديةً لا تنبثقُ إلّا عن ندّيةٍ واضحةٍ كالشمس، وقوةٍ عظيمة متماثلة.

لبث «جلجامش» مكانَه، وهو يفكّرُ في عرضِ «أنكيدو» الكريم، تأمّلَهُ، فشدّهُ جنانه الباسل، ونظراتهُ النفاذة النقية، فعادَ إليه، وصافحَ «أنكيدو» الذي شدّ على يدِهِ بدوره.

خرجا معاً بين جموع الناس المحتشدةِ، التي غزتْ قلوبَها الدهشةُ بعد الفزع.

ربطتْ صداقةٌ متينةٌ بين الجبّارين العظيمين، وبقيا أياماً وحدَهما يتسارّان ويتحدّثان. أطلّا على «أوروك» الجميلة، وتجوّلا فيها وحولَها، فبارك «أنكيدو» أعمال صديقه «جلجامش»، لكنّ «أنكيدو» لم ينسَ ما سمعه عن بطش «جلجامش»، ورأى بعينه بعضَ هذا البطش، فنصحَ صديقَهُ «جلجامش»، وتمنّى عليه أن يسنّ قانوناً يقف أمامه كلُّ من في البلاد، يحدد عقوباتٍ تتناسب ومخالفة القانون، ولا يكون القتلُ العقابَ الوحيد لكل جنحةٍ، فهناك عقوبةٌ للسرقة، وأخرى للخيانة، وثالثة للإهمال.

استمع «جلجامش» إلى صديقه مليّاً، ولمس فيه الصدقَ في النصيحة والخير لـ«أوروك». جمعَ الحكماء ليسنّوا القانونَ، فيشمل الناسَ جميعاً، ثم أظهروه جليّاً بهيّاً، فصفّقت له الرعيّة، ودعوا بالبركة لـ«جلجامش» العظيم، وصديقهِ المخلص «أنكيدو».

صار العمالُ يذهبون جماعاتٍ إلى العمل في ساعات محددة يعودون بعدها إلى بيوتهم للراحة والاستمتاع بأوقاتِ فراغهم، لتلتحق فئاتٌ أخرى بالعمل، بعدما نشطت له إثر راحةٍ ومتعة وجدوها في جنبات «أوروك» من خلال هذا القانون العادل الجميل.

ورأى الناسُ بعضهم بعضاً، وقد ارتسمتْ على وجوههم علاماتُ الرضا، وراحتْ حفلاتُ البهجة تهزج حباً بالحياة، وفرح الأولادُ، وهم يرافقونَ آباءهم في نزهاتٍ إلى البريةِ، أو للسباحةِ في نهر الفرات، فعلتْ ضحكاتُهم، وملأتِ الأرجاءَ مسرةً.

وأعطى «جلجامش» فسحةً أكبر للعلم والمعرفة، فتوسّعتْ حلقاتُ التعليم، وأدارَ وجهه نحو الصحةِ العامة، فبذلَ الحكماءَ والأطباءَ بين الناس، وبنى للمرضى خانات أخرى للاستشفاء، فلهجتْ ألسنةُ الرعية بالثناء عليه، وباركتْ صديقه «أنكيدو»، الذي دخلَ قلب «جلجامش»، فملكَه وراح يُعينه في مهماتهِ الكبيرة.

فتحَ «جلجامش» لصديقهِ صدره، وحدّثه عن آبار يحفرها. أطلعه على حلمهِ الكبير بإنجازِ سدٍّ على الفراتِ عظيم، وأظهرَ له رغبةً في تجارةٍ مع البلدان الأخرى، تجارة عادلة لا ظالم فيها ولا مظلوم، ثم تطلّع معه إلى بلادٍ أخرى فقيرةٍ يطمحُ إلى مساعدتِها، وأخرى يفكّرُ في غزوها، ليقتل حاكمَها اللئيم المستهتر بالرعيّة والحكم، ثم قال «جلجامش»:

- سأجعلكَ حاكماً على «أرائك وشوريباك» بعد أن أقتلَ حاكمها.

فابتسمَ «أنكيدو»، وقال:

– أما أنا، فلا أريدُ أن أكون حاكم «أرائك»، أو غيرها، ليكنْ مليكُها من أبنائِها الصالحين. سأبقى صديقَك هنا، ولن أبرحَ «أوروك» إلّا إلى موطني في البراري.

هزّ «جلجامش» رأسَه إعجاباً بصديقه الزاهد في السلطة والغنى، وانكبّ معه على خططٍ يرسمها بعد تفكير طويل في النهضة أكثر بشعب «أوروك» العظيم، فتخفقُ رايات الفرح والهناءة، لكنّ «جلجامش» توقفَ قائلاً:

– لن أستطيعَ أن أحققَ أحلامي هذه قبل أن أفتكَ بهذا المرعب! «أنكيدو»! استمع!

أنصت الصديقان إلى زمجرات الرعب، التي هزّت «أوروك»، قال «أنكيدو»:

– ما هذا؟

– إنه «خمبابا» الرهيب. ويدعونه «حواوا»، سكن غابة الأرز هناك، ويحرمنا من أن نستفيدَ من أخشابها وخيرها.

ران الصمت بينهما، ثم قال «أنكيدو»:

– هيا نتعاون على قتله.

لم يجبه «جلجامش»، فألحَّ «أنكيدو» عليه، فقالَ «جلجامش» ساهياً:

– إنه رهيب يا أخي! تساندهُ آلهةُ الغضب والعواصف والزلازل.

– هل رأيتَ «خمبابا» الرهيب يوماً؟

– لا، ولكن استمعْ إلى صوته، كيف تراه؟

– صوته المرعب لا يعني أنه قاهر لا يُغلَب، سنتعرّفهُ ونقتلهُ، قد يكون أقلَّ شأناً من صوته.

- كنتُ دائماً أحلمُ أن أخلّصَ الناس من شره.

- يا له من حلم جميلٍ، وغايةٍ ساميةٍ نبيلةٍ! هيا يا أخي! سأقاتلُ معك حتى النهاية، فإما نقتله، وإمّا نُقتل في ميتةٍ شريفة.

دبّ النشاطُ في «جلجامش»، وقد كان هذا الحلم يؤرقه. ها هو ذا صديقه الطيب يُجدّدُ الأمل والحلم، ويُعلي الهمم للوصول إلى القمم، وأيُّ قمةٍ أعلى وأجمل من إبادة الشر؟!

قُرعت الطبول، وخرجَ شيوخ «أوروك» يباركون «جلجامش» و«أنكيدو»، ويصبون في الآذان الوصايا الحكيمة، قال أحدهم:

- دعْ «أنكيدو» يتقدمك ليحميك.

وقال آخر:

- احفروا بئراً في الطريق مساءً، قرباناً لآلهة العدالة (شمس).

وقالَ شيخٌ ثالث:

- لا تدخلوا المعركةَ مع «خمبابا» قبل أن تعرفوا مواضعَ ضعفهِ لتنفذوا منها إليه.

- أكثِروا من العدّةِ والسلاح، ولا تنسوا الماء، احفروا الآبارَ.

ثم صرخوا جميعاً:

- اذهبوا رعتكم الآلهة.

وقالت «مامي ننسون»:

- بوركتَ «جلجامش»، وبوركَ سعيُكَ الحميد!

ثم التفتت إلى «أنكيدو» قائلةً:

- أيْ بُنيّ إنك عندي في منزلة «جلجامش»، فليكن أحدكُما نصيراً للآخر، سأتقرّبُ إلى الآلهة، فأحفرُ الآبار حتى تغمركُم بالرعاية مع جنودكم.

الصديقان أمام خمبابا

سار «أنكيدو» و«جلجامش» مع جيش عظيم مدجّج بالسلاح، من فؤوس وأقواس وسهامٍ حادة من أشهر البلدان. كانت الطريقُ طويلةً شاقة، ولم يتوقفِ الجيشُ إلّا لبعضِ الزاد، أو قليل من الراحة. قطعَ الجيشُ المسافاتِ الشاسعة في كل نهار، حتى اجتاز مسيرةَ شهرٍ ونصف في ثلاثة أيام، فإذا وصلَ قرب غابة «خمبابا» توقفَ الجيشُ يستريح، ليستعيدَ نشاطَه بعدً سفرٍ طويلٍ مرهقٍ، ثم توزّع فيما بينه الخططَ والأوامر، فبات مستعداً من ساعتِهِ للهجومِ على غابة الأرز، مسكن «خيمبابا».

كانت للغابة بوابة عظيمة، يقومُ قربها حارسٌ شرس، يلبسُ سَبْعَ دروعٍ من زرد. تقدّمَ «أنكيدو» خلسةً، مع أشجع الرجال، يسيرُ وراءه «جلجامش» يحيطُ به رجالٌ بواسلٌ. أمسكَ «أنكيدو» بالبوابةِ يبغي فتحَها. كانت باردةً ثقيلةً، فلم تتزحزحْ، عاود المحاولةَ دون فائدة، ثم دفعها بيديه وجسمه مراتٍ ومرات، وهو يبذلُ طاقتَه، فانفرجتْ قليلاً، ثم أبتْ وتمنّعتْ، وبدأ الغضبُ يعلو في نفس «أنكيدو»، ويعجبُ من أمر هذه البوابة التي تتحدّاه، فجمع قوتَه ثانيةً، وجعلها في يده، فانفتحتْ البوابةُ عنوةً، لكنّ يد «أنكيدو» كانت قد شُلّت.

دخلَ الرجالُ الغابةَ بحذرٍ كبيرٍ، ثم عادوا إلى «جلجامش» يهمسون:

– لا يستُرُ جسمَ الحارس، الآن، غيرُ درع واحدة، وأما دروعه الأخرى،

فقد علّقها على الأشجار. يجدر بنا، أيّها العظيم، أن نعاجلَه.

نظر «جلجامش» إلى «أنكيدو»، وقد أصابَه الاضطراب، كان يدلّك يده المشلولة قلقاً، فقال له صديقُه بحنان:

- لا تتهيّب يا أخي. ستعودُ الحياة إلى يدك.

وراحَ يشدُ من عزمهِ، ويذكّرهُ بجمالِ الحياة بعد أن يغيبَ الشَّرُّ، وقال:

- لا تَدَعِ القلقَ يلجم شجاعتَك!

انطلقَ «جلجامش» مع رجاله، على أن يلحق به «أنكيدو» وآخرون. هجموا هجمةَ رجلٍ واحدٍ على حارس الغابة، وكان شرساً عظيمَ القوة، متغطرساً، بوغتَ بالمهاجمين، ولم تستطع درعُه أن تحميه من طعناتهم، ولم يستطعْ صوتُه أن ينطلقَ محذّراً سيده «خمبابا»، فقد عاجلوه بالقتلِ.

دخل «جلجامش» الغابةَ، فشهقَ أمام جمالها، وعبقتْ رائحتُها الزكية النقية. كانت أشجارُ الأرز تنمو جميلةً على الجبال، وارفةً هنية الظلال، أدغالُها متشابكة تُخفي ما تحتها، لكنه عجب أن يسكنَ هذه الغابة البديعة «خيمبابا»، دون أن تقوى على قتلِ الشر فيه.

كانت الخطةُ تقضي بأن يتظاهرَ «جلجامش» ورجالُه، بقطع أشجار الأرز، لصناعةِ الأبواب، حتى لا يُثيروا غضب الآلهة، إنْ هي اعترضتْ، ويتبيّنوا في الوقت نفسه مواضعَ الضعفِ عند «خمبابا».

استيقظَ «خمبابا» على صوتِ الفؤوس تقطّع أشجارَ الأرز، فصرخَ صرختَه المدويّة، فاهتزتْ على إثرها الفؤوسُ في أيدي المهاجمين، لكنهم عاودوا ضربَ جذوع الشجر.

أطل «خمبابا» من شرفته صارخاً:

- مَنْ هناك؟ من يعكّر صفوَ أشجاري التي نمت في جبالي؟

لم يتلقَّ جواباً، ودار «جلجامش» بين رجاله، وهو يشجعهم:

- هيا، لا تلتفتوا إليه.

وفجأةً نبق «خمبابا» أمامهم بشعاً كريهاً، قد تجمّع قُبح العالَم فيه، كان يقفز غضباً كالبراكين، فزرعَ الروْعَ في النفوس، وقد رأوا النارَ من فمه تنطلق، فتحرقُ ما حولها.

تراجعَ «جلجامش»، وقد رأى رجاله يسقطون تحت ضربات «خمبابا»، فلقيَهُ «أنكيدو»، وكانت يده قد بدأت تستعيد قوتها. حثّ «أنكيدو» صديقه «جلجامش» على المُضي قدماً، ودفعهُ إلى مصارعة «خمبابا»، قال له:

- لا تدع الفزعَ يشلّ إقدامكَ الشجاع، ولا تتركْ غبار الشر يُخفِ الغاية الرفيعة السامية التي تسعى إليها، تذكّر بشاعةَ الشر، ثم تذكّر شعبَ «أوروك»، الذي ينتظرُ مجدكَ. هيا، سنتعاون.

ودبتِ الحماسةُ في «جلجامش»، فغيّر خطته الهجومية، وهو المحاربُ العنيد الباسل، وأمرَ أن يقتحمَ جيشُهُ كلُّهُ المعركةَ، وكان جيشاً عظيماً، بأسلحةٍ حادةٍ قاطعةٍ.

اهتزتِ الأرضُ تحت أقدام المقاتلين، وأرعدتِ السماءُ، واختفى ضوءُ النهار قليلاً، وانعقدتِ السحبُ، ثم أمطرت مطراً بارداً غزيراً. كان «خمبابا» عنيداً في القتال، واقتحم المعركةَ بجسارةٍ حمقاء، وقد غابت عن باله بسالةُ «جلجامش»، التي تذكيها عزيمتُه الحارةُ في محو الشر. كان «خمبابا» يناورُ ويبدّلُ مواقعه، ثم يعودُ إلى القتالِ الشرسِ، فقُتل كثيرون.

تقدمَ «جلجامش» مع «أنكيدو» يحيط بهما البواسل الشجعان، وقد رأوا



السماء تمطرُ موتاً مع مائها. لم يتذكّر «جلجامش» من الآلهة سوى «شمس» العادلة، التي تكره الشر مثله، ناداها، كانت فوقه ترعاه، فهي أقرب الآلهة إلى قلبِه، وإليها وحدَها كان يتوجهُ دائماً إنْ أعوزتْه الحيلةُ، فهي عادلةٌ رحيمةٌ، ربما لأنها تعيشُ مع الأحياء كلَّ صباح، ولا تفارقهم إلّا حينما ينهون أعمالهم. كانت أكثر معرفةً بهم وبأحوالهم، وأكثر قرباً من الآلهة الأخرى، فلا عجبَ إن تعلّقَ بها البشرُ والكائنات الأخرى.

هبّت في وجه «خمبابا» رياحٌ عاتية؛ الريح الكبرى، ريح الشمال، وريح الجنوب، وريح الزوبعة، وريح العاصفة، وريح الصقيع، وريح الإعصار، والريح اللافحة. كُلّها هبّت في وجه «خمبابا»، وضربت عينيه، فلم يعدْ قادراً على التقدّم، أو التقهقر. أعلنَ الاستسلامَ، وأظهرَ الذلَّ والخنوع، عرضَ على «جلجامش» أن يصنعَ له بيوتاً من أشجار الأرز، لكنّ «أنكيدو» نصحَ صديقَه بالإعراضِ عن مصالحة الشرير الخبيث، وقال له:

– ما هي إلّا فرصة من «خمبابا» للمراوغة، يستغلّها ليستعيد قواه. هيا نعاجلْه بالقتل.

حطَّ سكونٌ في الغابة، وأحسّ الجميع بالرهبةِ أولاً، ثم سرعان ما أدركوا أن «خمبابا» قد قُتل، فانطلقتِ الفرحةُ تعانقُ الغابة الزكية بنصرٍ عظيمٍ شريف.

حمل الجنودُ بوابةَ الغابة العظيمة، وأخشابها من أشجار الأرز، وذهبوا بها إلى «نيبور»، مدينة النجّارين المهرة، ليصنعوا لهم أبواباً لبيوتهم، بعد أن يصنعوا باباً جميلاً لـ«أنكيدو» الشجاع، وأريكةً كبيرةً وثيرةً لـ«جلجامش» العظيم، وأخشاباً أخرى لصناعة المزامير الموسيقية.

الصديقان أمام عشتار

انحدرَ الصديقان المنتصران عائدين إلى «أوروك». كانت أخبارُ النصر قد سبقتهما. اغتسلا بماءِ الفرات قبل دخول المدينة، التي عاشتْ أياماً سعيدةً بهيجة، فعلت الموسيقا، ومُدّت الموائدُ العامرةُ، وعقدت حلباتُ الرياضة، احتفالاً باليوم العظيم، يوم إبادة الشر، ثم سكنتْ هواجسُ المخاوف في النفوس، لتسكنَها الأحلام الزاهرة.

تعزّزتِ الصداقةُ بين «جلجامش» و«أنكيدو»، وتعلّق شعبُ «أوروك» بـ«جلجامش»، كما تعلّقوا بـ«أنكيدو»، فقد وجدوا فيه الصديقَ الوفي الشجاع، الذي بدّدَ وحدة «جلجامش»، ورأوا فيه ساعدَه الأيمن، لتمزيق أستار الشر والخوف، لتغمرَ شمسُ العمران «أوروك» القوية، لكنّ أثمنَ ما وجده شعبُ «أوروك» في «أنكيدو» هو هذا القلبُ الكبير الرحيم الذي استطاعَ أن ينتزعَ القسوةَ من صدرِ صديقه إلّا في وجه الشر، ليزرعَ فيه الحبّ والتسامح مع احتفاظه بقوّته وجلاله.

أطلّتْ آلهةُ الجمال «عشتار» على «أوروك»، فرأت البهاءَ يغمرُ وجه «جلجامش»، فقد زادهُ النصر جمالاً، والاطمئنان فتنةً. كان يجلسُ مع «أنكيدو» تلفّهما الصداقة النبيلة، وهما يَتحدَّثان في خططٍ أخرى، تحملُ لـ«أوروك» النهضةَ والهناءة.

استمعت «عشتار» في عليائها إلى الصديقين، فأثارتها تلك الصداقةُ

النقية، وفتنتها قوةُ «جلجامش» وجمالُ صورته، واهتزّتْ أهدابُها الطويلة الجميلة، وهي تتأمّلُ «أنكيدو» الوسيم.

هبطتْ إليهما طويلةً رشيقةً كنخلة ينسدلُ شعرها الطويل على ظهرها متماوجاً كحقل سنابل، وكانت بشرتُها نقيةً ورديةً كأن ماء الورد تجمّعَ تحتها، وقد كحّلت عينيها الساحرتين بكحلٍ من الجنوب، فازداد سحرهما شوقاً، وأما ثوبها الحريري الأخضر، فكان يحفُّ أنيقاً بصاحبته، وهي تسيرُ بحيويةٍ راقصة نحو الصديقين.

شهق «جلجامش» و«أنكيدو» معاً أمام هذا الجمال الباهر، وابتسمت «عشتار» ابتسامتَها العذبة، فعرفَها «جلجامش» سريعاً، وهمس لصديقه:

- إنها «عشتار» الجميلة.

جلستْ «عشتار» بين الصديقين، تُنقّل بصرَها بينهما، ثم استقرتْ نظراتُها على «جلجامش»، قالت:

- رأيتُ أن أُقدّم التهنئةَ للبطلِ الجميل «جلجامش» العظيم، قاهر «خمبابا» الرهيب.

قالَ «جلجامش» جاداً:

- انتهى الاحتفالُ بالنصرِ يا «عشتار»، واليوم يوم عمل.

قالتْ «عشتار» بدلال:

- لا، ستؤجل الجدَّ والعملَ إلى يومٍ آخر، لقد جئتُ لأمرحَ وألهو. هيا. هل نرقص؟

وأمسكتْ بيد «جلجامش»، فسحبَ يدَه قائلاً:

- قلتُ لكِ إنه يومُ عملٍ يا «عشتار»!

- هل ترفض «عشتار» يا «جلجامش»؟

- أجل. هيا، اخرجي من هنا، لا وقت لدينا نضيّعه!

لم تستسلم «عشتار»، وارتفعَ صوتُها بالغناء عذباً مرحاً، ثم قامت ترقصُ مائسةً تتثنّى أعطافُها اللينة رشيقةً خفيفةً. اقتربتْ من «جلجامش»، ومالت عليه، ففاحت عطورُها، ثم انتقلت إلى «أنكيدو»، ورقصت أمامه، لتعودَ إلى «جلجامش» قائلةً لهُ بدلالٍ:

- هيا، سنمرحُ قليلاً، ثم أجلسُ معكما أساعدكما في مهام البلاد الثقيلة.

- لستِ بالمرأة التي نستعينُ بها على مهامنا!

فقالت «عشتار» معتدّةً:

- إنني قادرة على كل شيء! أبي ربُّ الآلهة جميعاً، وهو لا يرفضُ لي طلباً، سأكونُ ذاتَ نفعٍ لكما.

فأدار «جلجامش» ظهرَه، وهو يقول:

- لستُ في حاجةٍ إليك، ولا إلى أبيك.

قامت «عشتار»، ودارت في البهو، ثم وقفت أمام «جلجامش»، قالت، وهي ترتجفُ:

- هل تطردُني يا «جلجامش»؟ ألا تخافُ حقاً من أبي؟!

- لا، اخرجي يا «عشتار»، اذهبي إلى زينتك، لا مكانَ لكِ هنا.

خافت «عشتار»، وركضت دامعةَ العين، كسيرةَ الفؤاد، فارتمت على كتفِ أبيها، تشكو له «جلجامش» وصديقه «أنكيدو»، وتستحثُّه على الانتقام

منهما. كانت تشهقُ وتبكي، وكان أبوها ضعيفاً أمامها لا يقوى على ردّ طلبٍ لها، فاستشار آلهة الغضب، فقالت هذه:

- إن «عشتار» على حق، فقد تمادى «جلجامش» في تحدّي الآلهة، ويجب أن يُؤدَّب ويُقهرَ. قتلَ رجلنا «خمبابا» وسكتنا عنه، أما أن يقهرَ «عشتار» الفاتنة الجميلة، فهذا هو الخطرُ الكبير.

الصديقان أمام ثـور السـماء

أرسلَ ربُّ الآلهة ثوراً ضخماً إلى «أوروك»، فعاثَ في المدينة الخرابَ، وحطّمَ البيوتَ والواجهات، وأرعبَ القلوبَ. لم يستطعْ جنديٌّ أن يقتربَ منه، كان الثور سريعاً في حركتهِ يخورُ خواراً عظيماً، تقولُ الحكايات إنه قتلَ في خواره الأول مئة رجلٍ، بل مئتين، وفي خواره الثاني قتلَ ثلاثمئة رجل.

وضعوا أمامه الحواجزَ يسدّون المنافذَ، فحطّمها، وانطلقَ يهشّم ما يجدُه أمامه. اقتحمَ البيوتَ، وداسَ مَنْ فيها من لائذين مروّعين، ثم كان يخرجُ ليقتلَ الرجال الذين تصدّوا له دون جدوى.

كان ربُّ الآلهة يعرف أن «جلجامش» سينزلُ مع صديقه لمواجهة الثور، بعد أن يعجز عنه الجُند، فوضع سُمّاً زعافاً في قرني الثور، وهو يُضمر أن يقهر «جلجامش».

غضب الصديقان غضباً عظيماً، ونزلا مع الجنود إلى الطرقات بعدما اتفقا على خطة للإمساك بالثورِ وقتلهِ. حوصرَ الثور في ساحةٍ كبيرةٍ، وشكّلَ الجندُ دائرةً محكمةً حوله من الرماح المسنونة المتراصّة الحادة. دخل «جلجامش» و«أنكيدو» دائرة الرماح، فأطلقَ الثور خواره الثالث، وانطلق نحو «أنكيدو» كما أوعزتْ إليه الآلهة.

وقف «أنكيدو» أمام الثور صلباً شجاعاً غاضباً، ولم تكن قامة الثور أعلى من قامة «أنكيدو» بكثير، فهاجَ ثورُ السماءِ، وحَملَ «أنكيدو»، وطرحه أرضاً، وراحَ يحاولُ أن يدوسَه بقوائمِه الضخمةِ، ويلطمه بذيلِه الثخين، لكنّ

«أنكيدو» تماسك، واستطاع أن يتقلّب بخفّةٍ، ثم نهضَ سريعاً، فقفزَ وركبَ ظهر الثور، فاهتاج أكثر، وقذفَ بهِ ثانيةً إلى الأرضِ.

وقفَ «أنكيدو» سريعاً قبالته، وأمسك بقرنيه، فأفلت الثورُ، ثم دار دورةً سريعةً، واندفعَ بوحشيةٍ يهجمُ على «أنكيدو». غرزَ قرنَهُ في خاصرتِه، ثم رفعهُ عالياً، ورمى به إلى الأرض بقوةٍ، لكنّ «أنكيدو» القويّ الشجاع قامَ بسرعةٍ خفيفاً، وصرخَ صرخةً مدويّةً، ثم قفزَ وأمسكَ بقرني الثور إمساكاً متمكّناً ثابتاً، وراحت سريعاً سريعاً حلقةُ الجُند، برماحهم المسنونة، تضيقُ، لتقترب من الثور، وكان «جلجامش» قد استعدَّ لطعنةٍ صائبةٍ لا تخيب، وهو المدرّب العظيم للثيران. غرزَ رمحَه المشهور بين مؤخرة رأس الثور وقرنيه، وقبض على جذر ذيلِه، وسارعتْ رماحُ الجنودِ تنغرزُ في جسمِ الثور، ثور السماء القوي، فخرّ صريعاً.

رفعَ البطلان التحية والشكر إلى «شمس»، آلهة العدل، وهي تباركُ قوتَهما أمام العدوان والشر، ثم شقّ الصديقان صدر الثور، وقدّما قلبَهُ حارّاً إلى «شمس» قرباناً لعدلها وحضورها القوي بين الأحياء.

سمعت الجموعُ «عشتار» تبكي مع رفيقاتها مقهورةً حاقدةً، وهي تصبُّ لعناتِها على «جلجامش»، فقطّعَ «أنكيدو» أوصالَ الثورِ، ورماها في وجهِ «عشتار»، وهو يتهددها بأنه لو أمسكَ بها، لنالها ما نالَ ثورَ أبيها.

حيّا «جلجامش» صديقه «أنكيدو» أمام الجميع، ولكنّ «أنكيدو» قال بتواضعٍ جميل:

- هيا، لا حاجةَ إلى ذلك، كلنا اجتمعنا على قتلِه، لم أكنْ لأفلحَ في قتلِه وحدي.

كان الثورُ خطراً كبيراً تخلّصتْ منه «أوروك»، لكنها لم تضيّع وقتَها في الاحتفالات، بل سارعتْ إلى إصلاح ما أفسدَهُ ثورُ الآلهةِ، وما هي إلّا أيامٌ وليالٍ، حتى عادتْ «أوروك» إلى جمالِها وانتظامها كعهدها دائماً.

انتقام الآلهة

لكنّ الفرحة لم تكتمل، ووقفت غصةٌ مريرةٌ في حلق «جلجامش». متى تصفو الحياة له؟

لقد أذلّ «جلجامش» أعداء «أوروك»، وقهرهم. في «أريدو» قتلَ «خمبابا» واستراحَ من رهبته الزائفة وشرّه الكبير. صرع الثور، وقطّع أوصاله، ورماها في وجه «عشتار» وأبيها، والآن ماذا يفعلُ أمام هذه الكارثة؟

استنفر «جلجامش» «أوروك» كلّها، وأجزلَ العطايا، وأعلنَ جوائز قيمة، لمن يحلّ له مشكلتَه. تطلّعت «مامي ننسون» إلى السماء، وحضّت الآلهة، وهي المؤمنة البارّة، أمرتْ بذبح الذبائح، وحفرتْ آباراً للتقرّب من آلهتها، فتساعد ابنها في بلواه، لكنّ الآلهة أدارتْ لها ظهرَها.

وقفَ «جلجامش» كسيراً فوق «أنكيدو» الطيب، كان مريضاً عليلاً، لم يُفلح طبيبُ القصر في شفائه، ورفعَ يديه عاجزاً أمام «جلجامش».

أرسلَ العظيمُ «جلجامش» في طلبِ أطباء من بلادٍ أخرى، فعجزوا عن شفاءِ صديقه. صرخَ فيهم ولعنَهم وحبسَهم مع طبيب القصر، وكادَ يقتلُهم لولا رجاء «أنكيدو»، فأطلقَ سراحهم. استقدمَ السحرةَ، وطافتْ أبخرةُ الأعشابِ المغليّة، وانعقدتْ في الغرفِ سحب البخور، دون فائدة.

كان «أنكيدو»، وهو يقاومُ الثور، قد جُرحَ في خاصرته بقرنه المسموم،

ولـمّا أمسكَ قرنيه بقبضتيه، جُرحَ عميقاً باطنُ كفيه أيضاً، فسَرى السمُّ سريعاً في جسمهِ، وتمشّى في أوصاله جريئاً مستعصياً على أدويةِ الأطباء وأعشابِ السحرةِ وبخورِهم، فمنذا الذي يُقَاوِمُ سمَّ الآلهة؟

لم يتركْ «جلجامش» صديقَه لحظةً، وقامَ على العناية به ليلاً نهاراً، كان يسقيهِ الدواءَ بنفسِهِ، ويجرعهُ الشرابَ، وهو يحنو عليه كأمٍّ ترعى طفلها الصغير المريض.

وفي ليلٍ متأخر، بكى «جلجامش» القوي العظيم، وبكى صديقه، قال «أنكيدو»:

- مُباركٌ يا صديقي مَنْ في ساح القتال يموت!

وردّ «جلجامش»، تخنُقهُ العبرات:

- لا تقلْ هذا. إنك مريضٌ الآن، لأنك قتلتَ الشر والعدوان!

- ليتني لم أترك البراري وآتي إليك.

- كنتَ ضيعتَ طيبتك في البراري مع الحيوان، تلعبُ وتصطادُ، ثم ماذا؟

سكتَ «جلجامش» قليلاً، وهو يمسحُ على جبين صديقه، ثم قال:

- كان قدومُك مباركاً، قتلنا الشر لـمّا صرعنا «خمبابا»، وصرعنا ثور السماء، الذي أرسلهُ ربُّ الآلهة غاضباً لابنته «عشتار»، لقد قمنا بأعمالٍ جليلةٍ معاً، ولن تنسى «أوروك» خدماتِك العظيمة ما عاش شعبُها.

- هذا صحيح، لكنّ ذاك جلبَ علينا غضبَ الآلهة.

وصرخَ «جلجامش» غاضباً:

- ما كان للآلهة أن تصنعَ لـ«أوروك» أحسنَ مما فعلنا، بل هي حاولتْ أن

تعيثَ الفساد بثورها اللعين لأجل «عشتار» اللاهية.

فاقتنعَ «أنكيدو» قائلاً:

– صدقتَ يا أخي، لن أندمَ على مجيئي، لكنني أحسُّ بالضعفِ أكثر كل يوم.

وتعانقَ الصديقان باكيين، لكنّ «جلجامش» استردّ قوته، وقال:

– لا تخفْ. سأشفيك. لن أيئس. تشجعْ أنت!

لكنّ المرض اشتدّ على «أنكيدو»، وصارت نفسه تلفظُ الدواء والطعام، وبقي أربعة أيام في غيبوبة، يفتحُ عينيه لحظاتٍ خلالها، ويتطلّع إلى «جلجامش» الذي أمسكَ بيده قلقاً، يصرخُ فيمن حوله أن يفعلوا شيئاً لصديقه الطيّب، لأخيهِ الصغيرِ الطيّب.

وقد كانت «أوروك» كُلُّها في حزنٍ على «أنكيدو»، ولم يكن «جلجامش» المفجوع وحدَه، سرحتِ النساءُ العجائزُ في الضواحي يبحثن عن أعشابٍ، وتذكّر الشيوخُ وصفات طبيةً أخرى، دون جدوى، فـ«أنكيدو» يذبلُ كل يوم كشمعةٍ تحترق، وتشفُّ روحه ليلة بعد أخرى، حتى انتهى بين يدي صديقه، ودوّتْ في «أوروك» صرخةُ حزنٍ مقهورة شقّت الليلَ الساكن، ونهضَ الناسُ من نومِهم على عويل «جلجامش» وبكائه، لقد فقدَ صديقاً عزيزاً، وأخاً طيّباً قوياً.

جاءت «مامي ننسون»، فوقفتْ بجانب «جلجامش» تهدّئُهُ، وهي تبكي مثله مقهورة على «أنكيدو» الطيب. غطّتْ وجهَ الفقيد بملاءة، وأشارتْ إلى الرجالِ أن يُعدّوا مراسم الدفن. صرخ «جلجامش» فيهم، فابتعدوا.

همستْ «مامي ننسون» في أذنه تواسيه وتخفّفُ من بلواه، وجاءت زوجه، «مامي ننشابور» تعزّيه وهي تحضنه، لكنّ «جلجامش» أدارَ ظهرهُ لكل



عزاء، وأمسكَ برأسه بين يديه، وهو ينظرُ إلى صديقه الممدّد أمامه، وقد فارقَ الحياة، أما الآلهة، فقد غرغرتْ بضحكتها شامتةً، وهي تنظرُ إلى «جلجامش» المفجوع المقهور في صديقِه «أنكيدو».

رفضَ «جلجامش» أن يُدفنَ «أنكيدو»، ولم يصدِّق أنّهُ ماتَ، لم يتذكرْ «جلجامش» الموتَ يوماً إلّا لمّا أخذ منه صديقَه المقرّبَ الطيبَ. بقي معه في الغرفةِ أربعةَ أيام حتى تفسّختِ الجثة، وانتشرت رائحتُها، سقطَ الدودُ من أنفها، فلم يبالِ «جلجامش» على الرغم مِن إلحاح أمه، ورجاءِ امرأته، ونصيحةِ حكيم القصر. أمسكَ بالدود، ورماهُ على الأرضِ، ليسحقهُ بقدمه الغليظة الثقيلة، واستمرّ الدودُ يسقطُ من أنف الجثة، فاستسلمَ حينئذ «جلجامش» لموتِ صديقه، وتراجعَ، ليتركَ الرجالَ يقومون بعملهم.

عمّ «أوروك» الحزنُ والحدادُ على «أنكيدو»، وشُلّت أيدي الناس، فلم تعدْ تقوى على العملِ أياماً وأسابيع، فقد كان «أنكيدو» صديقَ «أوروك» كلِّها، وعادَ الخوفُ ليجدَ له مكاناً في قلوبِ الناس، خشيةَ أن يعودَ «جلجامش» إلى قسوتِهِ الأولى، لكنّ «جلجامش» لم يعدْ إلى جبروتِه، اعتزلَ الناسَ، وقد سقطَ في قلبِه همٌّ كبيرٌ، ضغطَ على صدره حتى كاد ينفجرُ.

«الموتُ مخيفٌ مخيفٌ، إنّهُ يقتربُ مني طالما أخذَ أخي الطيب، ها هو ذا يتقدمُ نحوي»، هذا ما كان يردّده «جلجامش»، وهو يدورُ في قصرهِ.

خافتْ «مامي ننسون»، و«مامي ننشابور» على «جلجامش»، وقد أعرضَ عن تعزيتهما: «لا خالدَ إلّا الآلهة»، وأصمّ أذنيه عن سماعِ المزيدِ، وطردَ الجميعَ، وهو يقول:

– الآلهة... الآلهة! ماذا فعلتِ الآلهة للبشر أكثرَ مما فعلتُ و«أنكيدو»؟ لماذا الموت إذاً؟».

ودخلَ عليه شيخٌ جليلٌ، كان مُؤدِّباً لـ«جلجامش» في صغره، وكان «جلجامش» يقدّرهُ، فأمسكَ نفسَه عن طردِه. بدأ الشيخُ حديثَه عن «أنكيدو»، وراحَ يتذكّرُ طيبتَه وقوتَه، فبكى «جلجامش» وتأثرَ الشيخ، ثم تكلّمَ عن الصداقة، فأثنى على وفاءِ «جلجامش» وإخلاصه، ثم ختمَ قولَه:

- لن أقولَ انسَ صديقَك وانسَ الموت، ولكنْ لا تضيّعْ وقتَكَ عبثاً. اعملْ لدنياك ما استطعت، ولا تفكرْ إلّا في العملِ الصالحِ كما كنتَ دائماً. لا خالدَ إلّا الآلهة... و«أوتنا» مع زوجِه.

- «أوتنا... أوتنا» مَنْ يكون؟

وبقيَ الاسمُ في أذنِ «جلجامش»، ولم يعدْ يسمعْ غيره. سألَ «جلجامش» شيخَهُ:

- وأينَ تكونُ جزيرةُ الخلد، حيث «أوتنا»؟

ردّ الشيخُ:

- إنّها في بلادٍ قصيّة، لا يصلُ إليها إنسان.

وأضمرَ «جلجامش» في نفسِه أمراً، ودّعَ مُؤَدِّبَهُ الشيخَ بالإكرام والإجلال، فقد فتحَ لهُ بوابةً لمعرفةِ سرِّ الحياة والموت، وقرّرَ أن يسافرَ إلى «أوتنا»، فقد يعطيهِ سرّ الخلود، فيتحدّى به الموت، بعد أن تحدّى الأشرار والآلهة.

وراحَ هاجسُ الخلود يطغى على «جلجامش» حتى ملكَهُ، ولم يعدْ له من همٍّ سواه. كان يتطلّعُ إلى «أوروك» ويخاطبُها:

- مَنْ يتولّاكِ بعدي؟ كيف أتركُ بهاءَكِ بعد أن نهضتُ بكِ إلى الأعلى؟ مَنْ يقفُ في وجه الشّر والعدوان مثلي؟! ومنْ يسيّرُ دفةَ الحكمِ غيري؟ مَنْ يزرعُ ويقطفُ الغلالَ بعدي؟

كان القلقُ يطغى عليه حينما يأتيه «أنكيدو» في المنام، وهو مَرْميٌّ مع غيره في العالم السفلي ببلادةٍ وعجزٍ، يتقلّبون على جنوبهم دون أن يفعلوا شيئاً، يلوكون الطين، وتحوم حولهم الحشرات والهوام. كان «جلجامش» يبكي بحرقةٍ، وهو يرى «أنكيدو» مشلولاً، وهو الرجلُ المقدام الطموح. سألهُ مرةً:

- مَنْ معكَ في الأسفلِ يا «أنكيدو»؟

فأجابَهُ صديقُه كسيراً مدحوراً:

- معي بشرٌ كانوا مختلفين في الأعلى عندكم، لكنّهم سواسيةٌ هنا في العالم السفلي، ها هو ذا ملكٌ هامدٌ في الزاوية، ولولا تاجُهُ المحطّم قربَهُ لما عرفتُه، وها هي ذي جثةُ بنّاءٍ ممددة لا حولَ لها، ولا قوة، وهذه امرأةٌ. لقد ألمَّ بالجميعِ هنا مصيرٌ واحدٌ، عادوا إلى الطينِ وحدَهُ بعد حياة متنوعة مختلفة في الأعلى.

كان هذا المنامُ يأتي «جلجامش» كثيراً، فيزيدُ في همّه ويجعلُهُ أكثرَ تمرّداً على فكرة الموت، الذي لم يفكّرْ فيه بجدّية قبل موتِ «أنكيدو». كان يفيقُ مذعوراً، ويجوبُ جنباتِ القصر، ثم يطلُّ على «أوروك» قلقاً عليها من أن يفارقَها في يومٍ معلومٍ، لا تعرفُهُ إلّا الآلهةُ كما يقولون.

جلجامش يبحث عن الخلود

تفاءلت «مامي ننسون» لمّا رأتْ ابنها يتهيّأُ للسفرِ، وقالتْ له، وهي تودّعُه:

- قد تجدُ السلوى في السفرِ بعد أن تلمسَ المعرفةَ.

وقالتْ زوجهُ:

- نرجو أن نراكَ قريباً بيننا قويّاً كما عهدناك.

وخرجتْ «أوروك» كلُّها تودّعُهُ، وهي تدعوُ له باليُسرِ بعد العسر، وتتمنّى عليه أن يرجعَ إليها سريعاً، وقد سكنَتْهُ الطمأنينةُ، وفارقَه القلق.

لم يُفصح «جلجامش» لأحدٍ عن غايتِه في السفر، وركبَ مع مرافقيه العربةَ، تجرُّها خيولٌ عدّة، ليبدلها متى تعبتْ، فقد قرّرَ ألا يتوقف حتى يقعَ على سرّ الخلود، ليدفعَ به الموت.

كان يقولُ في نفسه:

- لن أستسلمَ للموتِ كما استسلمَ أخي «أنكيدو»، سأقهرُ الموتَ بالخلودِ، لن تكونَ الآلهةُ وحدَها الخالدة، بماذا تفضلُنا؟

جلجامـش في الصحـراء

راحَ «جلجامش» ينهبُ الأرضَ بعربتِهِ وخيولِهِ. كان عليه أن يسيرَ في برارٍ شاسعة لا حدودَ لها، وصلَ نهاره بليله حتى سبحتِ الخيولُ في عرقها، وسُمِعَ لُهاثُها، فوقفَ أخيراً، بعد رجاءٍ من المرافقين، أمام إصطبلاتٍ، يبدّلون الخيول. وكانوا ينطلقون ثانيةً، ليقطعوا الصحارى ويطووا المسافات.

لم يعرفْ «جلجامش» كم من الفصولِ والشهورِ تعاقبتْ عليه وهو في سفرِهِ، لا يتعب ولا يتراجع أمام وهن المرافقين، حتى سقطوا مرضى، فتركَهم في خانٍ وراءَهُ، وراحَ وحده.

انخلعتْ عجلاتُ عربتِهِ، فتركَها، وركبَ حصاناً ما لبثَ أن نفقَ بعد أيام، فسارَ «جلجامش» على قدميه في صحارى مقفرةٍ لا أنسَ فيها. هاجمتْهُ الوحوشُ، فصرعَها، سلخَ جلودَها، وأبدلَها بثيابِهِ المهترئة.

انتشرت القروحُ فوقَ جلده من أثرِ السيرِ الطويلِ تحت الشمس القاهرة المحرقة وسْطَ صحراء شاسعة لا يعرفُ بدايتها من نهايتها. وقفَ يتلفتُ حولَه. كانت الصحارى تمتدُّ ذَهبيةً حارّةً، تتمطّى قربها كثبانٌ من الرمال، تموجُ كالبحر.

أغمضَ «جلجامش» عينيه، وقد جرحتهما حدّةُ الضياء مع لهيب الشمس المحرقة، ثم نظرَ بعيداً نحو الأفق، فلم تطالعه إلّا الصحراء الصامتة، وقد

بدتْ غيرَ مباليةٍ بهمّهِ وتعبِهِ، غير عابئةٍ بقروحِهِ التي تخزُّهُ أليمةً موجعةً، لكن كيف الخروج من هذه الصحراء؟

مرّ به قطيعٌ من الغزلانِ، التفتت نحوه غزالةٌ، فأجفلتْ، ثم صاحتْ:

- «أنكيدو» صديقنا!

ونادتْ صاحباتها، فتحلّقن حول «جلجامش»، وقد ملأ الفرحُ عيونَها الجميلةَ. تقدّمتْ «ريم الفلا»، وسألتْهُ:

- كيف حالُك يا «أنكيدو»؟ هل نسيتَنا؟

انتفضَ «جلجامش» لمّا سمعَ باسم «أنكيدو»، وخفقَ قلبهُ. قال:

- أنا... أنا صديقُ «أنكيدو». هل تعرفينَ «أنكيدو»؟

- آ، ها، نعم، أنتَ «جلجامش» الذي ذهبَ إليه «أنكيدو»، ولم يعدْ. كيف حالُ «أنكيدو»؟ لقد اشتقنا إليه.

طفرتِ الدموعُ من العيونِ جميعاً، و«جلجامش» يتحدّثُ عن فجيعتهِ بـ«أنكيدو»، وبدت الغزلانُ مفجوعة بموتِ «أنكيدو» كحال صديقه «جلجامش». قالت غزالةٌ مسنّةٌ تدعى «مياسة»:

- ولكن هذه هي حالُ الدنيا يا «جلجامش»، الموتُ يتمشّى بيننا، فيخطفُ البشرَ والحيوانَ والنباتَ حتى العظيم منها.

عاتبَها «جلجامش» بنظرةٍ أجفلتْها. ابتعدت، ثم عادتْ إليه تقولُ:

- قروحُ جلدِكَ غائرةٌ تنزُّ ملتهبةً. هيا، سنعملُ، يا صديقي، على شفائِكَ منها.

وهمستْ في آذانِ صديقاتها، فقفز بعضُهن برشاقةٍ، ثم عدنَ يحملنَ

ألواحاً مشبكةً بالعسلِ والشمع. ألححَ على «جلجامش»، فلعقَ بعضَه، وألحتْ عليه «مياسة» ثانيةً، فوضعَ في فمِهِ شيئاً من عسلِ النحل المشبك بالشمع، وصارَ يلوكُهُ ويمصُّهُ.

وضعتْ على قروحِهِ شيئاً من العسل، وأكّدتْ لهُ أنّه سيُشفى من القروحِ بعد أيام إن هو دهنَها بالعسلِ، ثم رافقتْهُ إلى نبعِ ماءٍ، شربَ، فارتوى. بعد قليلٍ، أغفى، والغزلان حوله تروحُ وتجيء قلقةً عليه، وما انقطعتْ «مياسة» عن العنايةِ بقروحِه، تدهنُها بالعسلِ، وتغطّيها بالأعشابِ المفيدة، حتى إذا استيقظَ من نومه ألحّتْ عليه مع صديقاتها ليتناولَ العسل ويشربَ الماء، حتى استعادَ شيئاً من قوتِهِ، ثم اقترحتْ عليه الغزلان أن يرافقنَهُ إلى قريةٍ قريبةٍ، ليحملَهُ رجل الطيور إلى «جبل ماشو»، وهو في طريقهِ إلى «أوتنا» الخالد، فيختصر المسافاتِ، ويخفّ العناء، وقد بدتِ الغزلانُ قلقةً هلعةً على مصيرِ «جلجامش»، صديق «أنكيدو» الطيب.

طيور الزو تحمل جلجامش

وقفَ «جلجامش» في القريةِ يسألُ عن رجل الطيور، فتجمّعَ حوله الناسُ يعجبونَ من أمرِ هذا المسافر الكبير، ويتساءلونَ عن سرٍّ سفره العجيب، ولولا قامتُه المديدة المعهودة، ووشم «جلجامش» العظيم، لأنكرَهُ الناس، وأعرضوا عن مساعدتِهِ.

جاءَ رجلُ الطيور، ووقفَ أمام «جلجامش» الجبّار فزعاً، فدعاهُ إلى تحضيرِ طيوره، وأعطاهُ أمراً عليهِ علامة منه، ليقبضَ من خازن «أوروك» ذهباً وفضة، على أن تحملَهُ أقوى الطيور وأسرعُها إلى جبل «ماشو».

أمامَ جبروت «جلجامش» وإلحاحه، ركضَ الرجلُ إلى سطح وسيع، تحطُّ عليه طيورُ «الزو» العظيمةُ. كان صاحبُها قد ربطَ سيقانَها بحبالٍ معقودةٍ على حلقاتٍ معدنيةٍ غليظةٍ مثبّتةٍ بالسطحِ. ربطَ الرجلُ كرسياً من القصبِ بأرجلِ ثلاثةٍ من الطيورِ الضخمة، وراحَ يفكُّ الحبالَ والحلقات. بعدَها ركبَ مع «جلجامش» في كرسيِّ القصبِ، ثم شدَّ حبالاً رفيعةً تحت أجنحةِ الطيورِ، فرفرفتْ هذه قويةً بأجنحتِها، وتحرّكَ الهواءُ مندفعاً.

علتِ الطيورُ، ثم علتْ، ثم علتْ وسبحتْ في الفضاءِ الفسيح، وتنفّسَ «جلجامش» ملءَ صدره، وأغمضَ عينيه يحلمُ بلقاءِ «أوتنا» الخالد، إنّهُ يقتربُ، لكنّ المسافاتِ لا تزالُ ممتدّةً قصيةً. فتحَ عينيه، ونظرَ تحته، كانت الأرضُ تفرشُ بُسطَها زاهيةً، وكانت الحقولُ تبسمُ بشفاهٍ حُمرٍ صُفرٍ،



تقطعُها أثلامٌ، وتتلوى بينها سواقٍ غنيةٌ متلألئةٌ. قطعَ مسافات أخرى، فرأى البياضَ ثوباً يكسو الطبيعة كلّها، فسألَ رجل الطيور عجباً، فقال له:

- إنّه الثلجُ، أيّها العظيم!

اجتازَ فضاءً رحباً آخر، فرأى نهراً عظيماً متدفقاً، قد اعترضَهُ جدارٌ، فتذكرَ نهر الفرات والسدود، التي كان يحلمُ بإقامتها فيه. وتمتم يقول:

«متى قابلت (أوتنا) الخالد وعرفتُ سرّه، فسأنجزُ كلَّ شيء... سأنجزُ كلَّ شيء».

وهزَّ رجلُ الطيور رأسَه، وقد وصلتْ إليه بعضُ همسات «جلجامش»، وهو يأملُ أن يستطيعَ هذا العظيمُ إنجازَ أعماله بعد أن وصلَ إلى هذه المرحلةِ من الإنهاك والتعب، وبعد أن ضاعتْ سنون، وهو حزينٌ على فراق صديقه.

تطلّع «جلجامش» تحته ثانيةً، فرأى أرضاً مكسوّةً بالأشجار الباسقةِ، ورأى هنالك حقولاً مزروعةً خُضْراً خصبةً. تعجّبَ من نضارتِها، فقال له رجلُ الطيور:

- لقد تعاقبَ على تلك الأرض ثلاثةُ أجيالٍ من البشر، أيُّها الحكيم، حتى بقيت خضراء.

وقد تمنّى الرجلُ في نفسه لو يعرفُ «جلجامش» أن سعيَهُ لقهرِ الموتِ غيرُ مُجدٍ، فالحياةُ لا تستمرُّ برجلٍ واحدٍ، ولو كان «جلجامش».

وعادَ «جلجامش» يتساءلُ في عليائه: ما سرُّ هذه الحياة التي يخطفُ فيها الموتُ الأحياءَ برعونةٍ وحماقةٍ، فلا يميّزُ بين جاهلٍ ومتعلمٍ، وبين شريرٍ وطيبٍ، أو بين مُسِنٍّ وفتىً؟ سأعرفُ قريباً سرّ الخلودِ، فأقهرُ الموت.

وشدَّ «جلجامش»، وهو في تفكيره العميق، حبالَ الحرير التي تقعُ تحت

أجنحة الطيور، فتأوهتْ ألماً، وصارتِ الحبالُ تخزُّ في لحمها، فتوجعُها. وناشدَ صاحبها «جلجامش» أن يرأفَ بها، وإلّا سقطوا جميعاً مهشمين من العلو الشاهق، فارتعدَ «جلجامش» في داخلِه من هذه الفكرة، وأسندَ ظهرهُ ليتركَ رجل الطيور يقومُ بالقيادةِ.

جلجامــش فوق جبـل ماشــو

كان جبل «ماشو» في أقصى غرب الأرض، وكان على «جلجامش» أن يجتازَ نفقَهُ ليصلَ إلى شرقِ الأرض، حيث ينطلقُ منه إلى «أوتنا».

كان الجبلُ شاهقاً برأسين شامخين يحضنان الشمس، فيرفعانها حتى إذا مدّتْ النهار بالدفء انزلقتْ بينهما عبرَ نفق، لتظهر في الطرفِ الآخر من العالم.

هبطتِ الطيورُ كثيراً في أثناء تلك السنوات، لتأكلَ وتستريحَ، وتَزوّدَ المسافران بالطعام الخفيف. كان «جلجامش» صبوراً على الرغم من نفسه الوثّابة، وخشي من السقوطِ إن هو قسا على الطيور، فصبرَ كالمؤمنين.

حطّتِ الطيورُ أخيراً عند قاعدة الجبل «ماشو»، وأعجبَ «جلجامش» بجماله. وكان صاحبُ الطيور أشدَّ منه انبهاراً وإعجاباً، ولكن ما كادتْ أبصارُهم تهبطُ نحو قاعدةِ الجبل حتى تراجعَ صاحبُ الطيور خوفاً وهلعاً، وصرختِ الطيورُ فزعاً، فماذا هناك في أسفلِ الجبل؟

رأى «جلجامش» حرساً مُتراصّاً من البشرِ العقارب السود، يلتمعُ في عيونِها ألقٌ مخيفٌ، وفي نظراتِها يحسبُ أن الموتَ سريع. تمالكَ «جلجامش» نفسه بعد لحظات، وتقدمَ من الحرسِ معرّفاً بنفسِه، فرحّبوا به، وقد بدا لهم صاحبَ نفسٍ كبيرة، على الرغم من مظاهرِ التعبِ والشقاء. ولمسَ «جلجامش» حبّاً ورحمةً من هؤلاء البشر العقارب، على الرغم من ألوانها

القاتمة. سأَلَه كبيرُهم:

- لأيِّ أمرٍ اجتزتَ المسافاتِ إلينا؟

- قضيتُ السنوات، واجتزتُ المسافات، لأجل «أوتنا»، لأصلَ إلى «أوتنا»، أسألُهُ عن سرّ خلودِهِ، وعليّ أن أمرّ في جبلكم الشاهق، لأصلَ إليه.

قالتْ زوجةُ العقرب:

- إنه لأمرٌ غريب أن يركبَ الإنسان المصاعبَ، ويَتكبَّدَ العناء، ليدركَ سرّ الحياة.

وعادَ كبيرُ العقارب يقول، وهو يرجو أن يثني «جلجامش» عن عزمِهِ رأفةً به:

- لم يعبر مسالك هذه الجبال إنسان، لا نور هناكَ، ولا حياة، ظلامٌ دامسٌ فريدٌ، فهل تتحمّلُ الظلام، وأنتَ التَّعِبُ الوحيد؟

فردّ «جلجامش» بصدقٍ وإصرار:

- سأمضي في الظلام والأسى، وفي الألم والضنى، لن يثنيني ظلام ولا وحدة، فافتح لي الآن بوابةَ الجبال.

فلما لمسَ العقربُ عزيمةَ «جلجامش»، وجدَها حارّةً عنيدة، وفتحَ له بوابة الجبل، ودعاه إلى المسير في طريق الشمس. قال «جلجامش» بلهفة:

- إذاً، ستكونُ الشمس معي؟!

- لا، لن تكونَ معك. حينما تمرُّ الشمسُ في النفق تعقصُ شعرها وتغطيه بمنديلٍ طويل، فلا يبين. لا تبغي الشمسُ أن يتبددَ ضياؤها ودفؤها في النفقِ، حيث لا حياة. إنها توفّرهُ لعالم تخرجُ إليه، حيث الكائنات في انتظارها، لذا سيكون عليكَ أن تكونَ وحيداً فيً ظلامٍ مقيمٍ، فهل تقدر؟

هَزَّ «جلجامش» رأسَهُ مصراً على المضي في طريقه، حيث «أوتنا» يقتربُ، وسِرُّ الخلود ينجلي.

استوقفتْهُ زوجةُ العقرب، وحلفتْ أن يحملَ معه شيئاً من الطعام يعينُه على رحلتِه الطويلة المظلمة، فلا حياة في الظلام، لا حيوان، ولا نبات، فَاكتفى «جلجامش» بالخبز. أحضرتْ له العقربُ أكثر من مئة رغيف، وأَخْبرَتْهُ بأنّهُ سيقعُ على مساربِ ماء قليلة، فليملأ منها مطرتَهُ متى وجدَ الماء.

جلجامش في النفق المظلم

سارعَ «جلجامش» إلى دخولِ نفقٍ مظلمٍ لا شعاعَ فيه. اجتازتْه الأيام والليالي، وهو في النفقِ يركضُ. لفّهُ الظلامُ من كلِّ جانبٍ، ولسعهُ البردُ، ونفذَ إلى عظامِهِ، ولفّتْ رأسَهُ رائحةُ الرطوبةِ والعفونةِ، واستمرَّ يركضُ ويركضُ.

التفتَ وراءَه، ليعرفَ كم اجتازَ من النفق، فلم يُبصر إلّا الظلامَ، فتحَ عينيه على سعتِهما، فلم يجدْ شيئاً سوى الظلام... الظلام... هل خدعتْهُ العقربُ؟

عادَ يُسرعُ في خطواتِهِ، ويحسبُ الأيامَ والليالي من خلالِ أرغفة الخبز التي حمّلتْهُ بها المرأة العقرب. ولما أعياهُ السير والظلام، وقفَ وحيداً تَعِباً، وصرخَ ملءَ فمِهِ، وتردّد صوتُهُ في النفقِ طويلاً، ثم عادَ وصرخَ، وعلا صوتُه أقوى، ثم انطلقَ كالسهم، فهل يقترب؟

قطعَ المسافات طويلةً طويلةً، لكنّ النفقَ لم ينتهِ. أسندَ «جلجامش» ظهرَه إلى حائطِ النفق، ثم انزلقَ جسمُه حتى سقط إعياءً، أغفى، فأتاهُ «أنكيدو» في المنام. قبّلَهُ «أنكيدو»، فلم يعرفْهُ «جلجامش» بادئ الأمر، ولمّا عرفَهُ، تعانقا طويلاً، واستحلفَ «أنكيدو» صديقَه «جلجامش» أن يعودَ إلى «أوروك»، فلا نجاة للمرء من الموت، قالَ له:

- إنك تضيّعُ وقتَك يا أخي. انظرْ إلى نفسِك، سنوات قضيتَها تلوبُ لتصلَ إلى «أوتنا»، ولن تفلحَ في مغالبةِ الموت.

بكى «جلجامش» وهو يقولُ:

– لن أموتَ مثلك. ماذا تفعلُ في الأسفلِ؟ لماذا فارقتَني؟ من يُعينني على عملي؟

قالَ «أنكيدو» صادقاً:

– كثيرون... كثيرون يعملونَ معك. هيا قمْ وعدْ إلى «أوروك»، إنها تنتظركَ، لتزدادَ بك جمالاً.

واستيقظَ «جلجامش» فجأةً، فنهضَ سريعاً، وهو يقولُ:

– «أنكيدو» ميت... «أنكيدو» ميت، أما أنا، فلن أموتَ، سأقابلُ «أوتنا»، وأعرفُ سرَّهُ.

وعادَ يركضُ ويركضُ ويركضُ. كان يقفُ ليستردَّ أنفاسَهُ، ثم يعاودُ الصراخَ والانطلاق. كان لا يزالُ يحسبُ الرحلةَ بأرغفةِ الخبز التي سقطَ منها عددٌ غيرُ قليل، وهو يركضُ. قال:

– لا تزالُ معي أرغفةٌ فوق العشرة، فهل يستطيعُ أن يصبرَ على هذا الظلام اللعين؟

وصرخَ «جلجامش»:

– نعم. نعم. سأصبرُ حتى ألاقي «أوتنا».

وانطلقَ يعدو من جديدٍ.

نفدت أرغفة الخبز، لكنّ النفق لم ينته. ووقفَ «جلجامش» وسطَ الظلام، كما وقفَ وسط الصحراء القاهرة وحيداً شقياً بهمّه. نفذَ البرد إلى أوصاله كلها، فلم يقفْ، بل راحَ يعدو. كان يقفُ ويصرخُ، ثم يعدو، أو يمشي، فلم تعد قوته كما كانت.

جلجامـش في حديقـة النـور

وصلتْ، فجأة، بشائرُ النور، فأغمضَ «جلجامش» عينيه متأذّياً بعد أن مضى عليه زمنٌ في الظلام الدامسِ. وقفَ قليلاً، وهو لا يصدِّقُ عينيه. سارَ متمهّلاً أولاً، وهو يقولُ: «مَن يمشِ يصل»، ثم غذّ السير، وضاعفَ من خطوه، فوصلَ إلى ضياءٍ يعمّ وينتشر. كانت آلهة الشمس في انتظاره.

فركَ عينيه، وبقيت يداه تحميان وجهَهُ من هذا الضياء الذي انداحَ حولَهُ، لطالما سعى إلى هذا النور، وركضَ إليه متشوِّقاً. فتحَ ما بين أصابعِه، فصافحَه النورُ بشيراً غامراً.

كان «جلجامش» أصفرَ الوجه، تحيطُ الهالاتُ الزُّرْقُ بعينيه الذابلتين. تلفّتَ حولَه، وشهقَ. ماذا يرى؟ أين هو؟

سار خطواتٍ، فطالعتْهُ شجرةٌ من العقيق الأحمر، تحملُ عنباً يتدلّى فتنةً للناظرين. مدّ يدَهُ وقطفَ... ما هذا؟ وقطفَ أخرى... إنها من الحجر الكريم. سارَ خطواتٍ نحو اليمين، فرأى شجر اللازورد الأزرق، ينوءُ بثمرِهِ، قطفَ واحدةً، إنّها من الحجر الكريم أيضاً!.

سمعَ خريرَ ماءٍ، فتوجّه نحوه، غرفَ بيديه ماءً ليشرب. رأى أحجاراً متلألئة تلتمعُ تحتَ مياهه الفضية النقية. كان الجمالُ حوله ينطلقُ ويشدّهُ إليه لحظاتٍ، لكن سرعان ما كان يعودُ «جلجامش» إلى نفسِه.

سمعَ غرغرة الضحك تنطلقُ من صبايا يصنعنَ حلياً من هذه الأحجار

البديعة، وتناهى إليه لهاثُ الطمع من رجالٍ يغرفون من المياه الأحجار المتلألئة، فأدارَ ظهرَه مبتعداً. اعترضتْهُ آلهةٌ الشمس، وكانت قد أشرقت بهيةً. سألتْهُ:

- إلى أين تمضي يا «جلجامش»؟ وإلى أين تسعى بك قدماك؟ انظرْ... تأملْ... أليست هذه الحديقة بهيجةً تسرُّ الناظرين؟

- لن أجدَ لذةً، ولا بهجةً قبل أن أعرفَ ما الموت، وأقهرُه... لماذا مات صديقي «أنكيدو» الذي أحببتُه؟ أليسَ هناك حياةٌ أبدية؟

عطفتْ عليه آلهةُ الشمس كعادتِها، وقد رأتْ أحوالَه المتبدلة. قالت:

- إنّ الحياة التي تبحثُ عنها لن تجدَها، والخلودُ للآلهة فحسب. وحدَها الآلهة خالدة، و«أوتنا» مع زوجه.

- يكفي هذا. يكفي ما سمعتُه عن الآلهة الخالدة، وأما «أوتنا»، فهو قبلتي.

وراحَ مبتعداً عن الشمسِ التي تأثرتْ وحزنتْ لأجلِه، وسمعتْهُ يقول:

- ولماذا لا يبقى الإنسان خالداً كالآلهة؟ لقد قدّمتُ لقومي ما لم تقدّمهُ الآلهةُ، وسعيتُ مع رفيقي إلى الخيرِ والعمران، في الوقت الذي كانت فيه آلهة الغضب ترسلُ الثورَ المسمومَ، لتعيثَ فساداً، وتطلق رجُلَها «خمبابا» الرهيب، ليملأ القلوبَ رعباً، ويحرمنا من نعمةِ الطبيعة، فمن أحقّ بالخلود؟

جلجامـش في الحـان

لـمّا خرجَ «جلجامش» من الحديقة البهيجة، حديقة الأحجار الكريمة، وجدَ نفسَه عند حافة الأوقيانوس العظيم المحيط بالكون، ورأى على بعدٍ حانةً تُشعشعُ بالأنوار، فاتجه إليها، ليعرفَ السبيلَ إلى «أوتنا» الخالد.

نظرتْ «سيدوري»، صاحبة الحانة، من النافذة، فرأتْ رجلاً ضخماً يتقدمُ منها. حارتْ في أمرها، إنّه ليس من الآلهة، أو زُبن الحانة. من يكون؟ ولكن في قامتِه المديدة هامة الآلهة، وفي عرضِ منكبيه ما يذكّرها بروّادها، ولكن!

بدا لها «جلجامش» مّحيّراً، رجلاً ضخماً تَعِباً، يُثقل الأسى نفسه، فتنحني كتفاه، وقد قنعَ بجلود الحيوان كساءً له.

نظرتْ «سيدوري» إلى وجهه مليّاً، فرأَتْهُ متغضّناً قد ضمرتْ وجنتاه من أثر السفرِ الطويل والهمّ العميق، وليست هذه حالُ آلهتها، فأبداً هي مشرقةٌ وجوهُها، مكتنزةٌ خدودُها، متألقةٌ عيونُها، بهيجةٌ نفوسُها، على الرغم مِمّا تحتها من أهوالِ البشر ومصائبهم. ثم ظنّتْ صاحبة الحانة أنّ هذا الرَّجُلَ قاتلٌ، فأسرعتْ إلى بابِها توصدُه بإحكام.

كان «جلجامش» قد وصلَ البوابةَ، فصرخَ صراخاً قوياً موجعاً:

– ماذا رأيتِ، أيتها المرأةُ، منّي حتى أوصدتِ بابكِ في وجهي؟

– اذهبْ. إننا لا نستقبلُ إلّا الآلهةَ.

- لتذهبي إلى الجحيم. لا أريدُ حانتَكِ ولا طعامَك. إنّ بي هماً لن يعرفَه خمرُك. افتحي البابَ وإلّا حطمتُه.

كان في صوتِ «جلجامش» رجاءٌ حارٌّ على الرغم من قسوتِه، ففتحتْ له صاحبةُ الحانة الباب. سألتْهُ:

- مَنْ أنتَ؟

- أنا «جلجامش».

- مَنْ؟ مَنْ؟

وقد خالطَ سؤالَها شكٌّ وهيبةٌ جليلة..

- أنا «جلجامش»، والآن، أينَ الطريقُ إلى «أوتنا» الخالد؟

- أنتَ «جلجامش؟!

رفعَ يدهُ التي تحملُ رمز «جلجامش» العظيم، فصُعقتْ صاحبةُ الحانة، واضطربتْ، ثم ركضتْ في أنحاءِ حانتِها تحتفلُ بـ«جلجامش» العظيم، وبقي «جلجامش» واقفاً، على الرغم من إلحاح المرأة وزوجها، ثم تقدمتْ منه وَجِلَةً متسائلةً:

- «جلجامش العظيم»! أنتَ من قهرَ الآلهةَ، كما سمعتُها تقول مغتاظةً، أنتَ من قتلَ «خمبابا» ساكنَ الغابة، وذبحَ الآسادَ، وقتل ثورَ السماء. كيف تبدو مقهوراً هائماً؟

- كيف لا يتعبُ جسمي، وتهيمُ روحي في القِفار، وأنا أبحثُ عن قاهرٍ للموتِ، هذا الذي قهرني وخطفَ صديقي «أنكيدو»؟

- «أنكيدو»؟ مَنْ يكون؟

– صديقي «أنكيدو» وأخي الصغير، الذي طاردَ حمارَ وحش البراري والفلاة. قهرنا الصعابَ معاً، وصعدنا مسالكَ الجبال، وبنينا الأحلامَ، ومحونا الآلام، لكنّ الموتَ الرهيبَ قهرني، ولمّا أكمل وصاحبي ما بنيناه، أفلا يكونُ مصيري مثلَه؟

– هوّن عليك يا «جلجامش» العظيم.

وأقبلتْ تقدمُ له الشراب.

– كيف أصلُ إلى «أوتنا»؟

– ستكونُ ضيفَنا اليوم يا «جلجامش» العظيم.

– كيف السبيلُ إلى «أوتنا»؟

– ثمّةَ ملّاحٌ يذهبُ إليه بين فترةٍ وأخرى، لكنّه لن يعودَ إلى غابتِه قبل غدٍ، فهلّا قبلتَ اليومَ دعوتَنا، أيّها العظيم؟

زفرَ «جلجامش» ضجراً، لأنه لن يلاقي الملّاح اليوم، فجلسَ على أول كرسي، وبذلتْ له «سيدوري» الشرابَ سخياً، وقد عرفتْ أنه في همٍّ مروّعٍ من فكرةِ الموت. نشرتْ صاحبةُ الحانة حول «جلجامش» هدوءاً ولطفاً، واختارتْ له أفضلَ جناحٍ، وحضّرتْ لهُ الحمامَ دافئاً عطراً.

تذكّر «جلجامش» صديقَه «أنكيدو»، فبكى. اقتربتْ منه «سيدوري» متأثرةً، إذ رأتْ عزيزاً يبكي صاحبَه. جلستْ معه إلى المائدة، حدّثتْهُ، فقالت:

– كان لي، أيُّها العزيز، ابنٌ وحيدٌ، أغناني عن عشرة أبناء، فلم أُنجب سواه، وأحطتُه مع أبيه بعنايةٍ واهتمام. أدّبناهُ أحسنَ تأديب، وعلّمناهُ أحسنَ العلوم، وأحطناه بالحب، فصارَ مصدرَ فرحنا، ولكن... لكنه مات.

انتفضَ «جلجامش»، وقالَ:

- ماذا؟ ماتَ؟

ابتسمتْ «سيدوري» متحسرةً، وقالتْ:

- تسلّلَ إليه مرضٌ أصفر، لم نستطعْ دفعَهُ، على الرغم من أموالنا، وحُبّنا، ورضا الآلهة عنا، وما أفاده أدبهُ وعلمهُ.

رنا «جلجامش» إلى المرأة، ثم قال:

- وماذا فعلتُم؟

رشفتْ «سيدوري» من كأسها، وقالت وهي تبتلعُ غصةً:

- بقيتُ سنتين لا أُكَلِّمُ أحداً، وبقي زوجي مثلي يحتسي الشراب، ويبكي.

- هيه، وماذا بعد؟

- مرّ بالحانة يوماً عجوزٌ، ورمى بنصيحتهِ، ودعا عليّ بالويل، إنْ لم أعملْ بها، قال العجوز: «لن تشفي من حزنك، إن لم تُنجبي بنينَ وبنات، فلا تضيّعي شبابَكِ الذي يكادُ يذهبُ بالبكاء».

خفتُ من دعاءِ العجوز، ورحتُ أنجبُ كلَّ عام طفلاً، حتى صارَ لي اثنا عشر ابناً وابنة كالنجوم، ملؤوا حياتي وحياة زوجي، وكانوا دافعاً لنا لنحيا ونعمل ونعطي.

قاطعها «جلجامش»:

- وهل نسيتِ ابنك الفتي الذي مات؟

- لا، أبداً لن ننساه، لكن في إخوتهِ العوض.

رغبَ «جلجامش» في رؤية الأبناءِ والبنات، هؤلاء الذين جعلوا أمّهم تسلّمُ بالموتِ بعد عناد. أرسلتْ «سيدوري» في طلبِهم، فتقدموا في صخبٍ جميل،

ينتزعون ابتسامةً من «جلجامش» على الرغم من همّه المتجهّم. أحاطوا به، وقدّروا فيه زبوناً غيرَ زُبن أهلِهم. كانوا أطفالاً في عمرِ الأزهار النديّة، وأما صغيرُهم، فقد حملتْه «سيدوري» على صدرها، ثم وضعتْهُ في حضنِ «جلجامش»، فرفعَه بين يديه، وداعبَ الطفلُ وجهَ «جلجامش» المتغضّن الخشن، فاستغربَ، وبكى، والتفتَ إلى أمِّه، فسارعتْ إليه، قالت «سيدوري»:

- كم ولداً عندك، أيّها العظيم؟

- ولدٌ واحدٌ.

وجدتِ المرأة أن الأمرَ غريبٌ، فتساءلتْ:

- «جلجامش» العظيم لا يُخَلِّفُ وراءَهُ إلّا ولداً واحداً؟!

ثم انتبهتْ «سيدوري» إلى صراحتِها، فاعتذرتْ، فطمأنها:

- لقد كنتُ مشغولاً. كانت الأعمالُ كثيرةً.

- الأعمالُ كثيرةٌ صحيح، وهي تُخلّدُ صاحبَها، لكنّ الإنسان لن يستطيعَ أن يقومَ بها وحدَهُ، أولادهُ يخلفونه، ويتابعونَ ما بدأه أبوهم.

بكى الصغيرُ، فقامتْ تحثُّ أبناءَها برفقٍ على العودة إلى غرفهم، و«جلجامش» يتأمّلُ الطفولةَ العذبةَ كوردةٍ طازجة، ثم تأمّلَ «سيدوري» البسيطة التي تدّعي الحكمة، فتأثّرَ، لكنه قالَ في نفسه: «الموتُ فظيعٌ رهيبٌ لن أقبلَ به، سأقابلُ (أوتنا)».

عادتْ «سيدوري» وزوجُها، ليجلسا مع «جلجامش»، وهما يحوطانِه بالعنايةِ. جلسوا صامتين قليلاً، ثم تكلّمتْ «سيدوري»:

- لو أمسكتَ، أيّها العظيم، بيدِ ابنك الغضةِ، لأحسستَ بأنكَ تملكُ الدنيا. تطمئنُ نفسي حين أنظرُ إلى أولادي في المستقبلِ، وهم ينشطون لعملٍ

لم أستطعْ أن أدركَه في حياتي.

وعادتْ تبتسمُ مزهوّةً، وهي تملأُ كأسَ «جلجامش»، تابعتْ:

- أما امرأتُكَ، أيّها الحكيم، فلا تهملْها، بوسعِها أن تنجبَ لك أجملَ الأبناء، وأكثَرهم ذكاءً ونشاطاً، إنْ أنتَ أحطتها بالحبِ والاهتمام، فلا تكنْ خشناً معها.

ونظرتْ إلى زوجها، فبادلَها ابتسامةً رقيقةً مُحِبَّة.

نظرَ «جلجامش» إلى «سيدوري» مفتوناً بحكمتِها البسيطة الصادقة، ولكنّ الموتَ مريرٌ، فكيفَ أدفعُهُ؟، وعلا صوتُه:

- الموت، الفناء، النهاية، من يقومُ بأعمالي مثلي؟

وقالَ صاحبُ الحانة:

- أيّها العظيم، سيبقى الموتُ يتمشّى بيننا، أو وراءَنا، ولن نستطيعَ الإفلاتَ منه مهما بلغَ حذرُنا. نعيشُ ونعملُ ونلهو، ولن نبالي به، ولكن إنْ فكّرنا فيه، فلنعمل بهمةٍ أكبر، ولنقطف من سعادةِ الحياةِ بشهيةٍ أطيب.

- هل سمعتَ بالخالدِ «أوتنا»؟

- سمعتُ أنه ضجرٌ من حياتِهِ، فقد بلغَ من العمرِ نحوَ خمسة آلاف سنة، أو أكثر، لا أحدَ يعلمُ.

قالَ «جلجامش» متعجباً:

- ماذا؟ عمره خمسة آلاف سنة؟!

- هكذا يقولون. لا أعرفُ بالضبط، لكنه معمّرٌ كبيرٌ، أحفادهُ يملؤون الأوديةَ والهضاب والجبال، المدنُ والقرى تعجُّ بهم، يموتُ بعضهم، ويحيا آخرون، وهو خالدٌ أبداً لا يزول.

قامَ «جلجامش» يتمشّى في الحانة، أطلّ من نوافذها ينتظرُ اللقاءَ مع «أوتنا»، هذا ما يريدُه، خلودٌ، خلودٌ، خلود، ثم عادَ إلى المائدة، وجرعَ ما في كأسه من شراب، وهو يعلنُ أنه سيأوي إلى الفراشِ. دخلَ غرفتَهُ، لكنّ جفناً لم يغمضْ له، وهو ينظرُ إلى جزيرةِ الخلد، حيث «أوتنا» قائمٌ خالد.

انتظرَ الفجرَ، وهو يمشي في غرفته جيئةً وذهاباً حالماً بلقاءِ الخالد، ثم جلسَ، ويبدو أنّ عينَه سهتْ ونامتْ نوماً خفيفاً، فرأى «أنكيدو» في المنام، وهو مَرْمِيٌّ في العالم السفلي، يلوكُ الطين طعاماً، فقالَ له «جلجامش» متأثراً:

- لو لم تمتْ يا «أنكيدو»، لأشركتُك في سرّ الخلود، سأقعُ عليه قريباً، إنني في طريقي إلى «أوتنا» الخالد الباقي، مرحلةٌ واحدةٌ بيني وبينه. لماذا متّ يا صديقي مفارقاً؟ هل أستمتعُ بالخلودِ بعدك؟

ورفعَ «أنكيدو» رأسَه قليلاً، يهزهُ، وهو يقول:

- عبثٌ ما تقومُ به يا «جلجامش»! عبثٌ، عبثٌ، عبثٌ.

واستيقظَ «جلجامش» مجفلاً. كان الفجرُ يرمشُ بعينيه، وهو يتمطّى، لينهضَ، فسارعَ «جلجامش» يخرجُ إلى البهو، يوقظُ صاحبَ الحانة، ليرشده إلى الملّاحِ. نظرَ إليه الرجلُ مليّاً، وقالَ في نفسه:

«ليذهبْ إليه، لن يقنعَ بما قلناه البارحةَ، حتى يرى بنفسِه «أوتنا» المعمّر الضجر».

ونهضتْ امرأته على عجلٍ تحضّرُ طعاماً، وهي تنظرُ بإشفاقٍ إلى «جلجامش» المقهور، وقد جعلَ الخلودَ همّه وشاغله حتى عن حمّامٍ ينعشُ جسمَه.

وعادَ صاحبُ الحانة يترددُ في الكشفِ عن الملّاحِ، الذي يسافرُ إلى الخالد

«أوتنا» خشيةً من الآلهة المتربّصة بكلّ طامح إلى التشبّهِ بها، لكنّ امرأتَه، وقد رأتْ صلابةَ «جلجامش» وعزمَهُ على مقًابلةِ «أوتنا»، أنبأتْه عن مكانِ الملّاح في الغابةِ، لكنها استدركتْ:

- إنَّ أحداً لم يعبرْ مياهَ الموت هذه، ولم يقدرْ قادمٌ من بعيدٍ قط على قطعِ هذه البحار، آلهةُ الشمس وحدَها تقطعُها. مياهُ الموت هذه صعبةٌ، بل قاتلة.

وقالَ «جلجامش» بإصرارٍ صادقٍ:

- سأجتازُها مهما يكن الموجُ عالياً قاتلاً، سأجتازُها لأصلَ إلى الخالدِ «أوتنا»، فأعرفَ سرّهُ، وإلّا سأبقى هائماً في البراري مدى الدهر.

- إذاً امضِ إلى الملّاح «أورشنابي»، فهو وحدَه العارفُ بمسالكِ المياه، فإن شاءَ ساعدَك، وإلّا، فعدْ إلى «أوروك»، واقنعْ بما بقي من الحياة. ازرعْ كما زرعتَ الخيرَ من قبل، وارفعْ العمران، ولا تنسَ زوجَك وابنكَ.

جلجامش والملّاح

حملَ «جلجامش» بلطتَهُ، وانتضى الخنجرَ من حزامه، وهبطَ سريعاً إلى الغابةِ كالسهم المارق. راحَ يدورُ في الغابةِ محموماً منادياً الملّاحَ «أورشنابي»، فتكسرت ألواحٌ من تحتِه، لم يعرفْ ما هي، وهربتْ من أمامِه الحيواناتُ، ورفرفتْ فوقَه الطيورُ فزِعةً.

تقدمَ الملّاحُ الغاضبُ من «جلجامش»، ووقفَ قبالتَه. كان «أورشنابي» فتىً قوياً متينَ البنيان، قد لوحتِ الشمسُ جسمَه، في عينيه ذكاءُ المتأملِ ورقةُ الشاعر. ارتفعتْ عيناهُ أمامَ «جلجامش» الذي يعلوهُ أمتاراً، وبعد لحظاتٍ من التأملِ، قالَ الملّاحُ:

- ماذا تريدُ أيّها الأخ؟

- هيا. احملني إلى «أوتنا» الخالد أُعْطِكَ ما تريد.

أجابَ الملّاحُ:

- لا أستطيعُ.

واستدارَ يتابعُ التحطيب، فصرخَ فيه «جلجامش» صرخةً مُدوّيةً رددتْ أصداءَها الغابةُ، لكنّ الملّاح لم يخفْ، واستدارَ ثانيةً إليه قائلاً:

- لماذا تصرخُ؟ ممنوعٌ على البشرِ العبور.

- مَنْ يمنعُ؟

- الآلهة. الآ لهة. كيفَ لا تعرفُ من يمنع؟!

- هل تلاحقُني الآلهة دائماً، تمنعُ وتأمرُ؟ ماذا يضيرها بحثي عن سِرِّ الحياة والموت؟

ابتسمَ الملّاحُ، وقالَ في سرّه:

«غريبٌ أمرُ هذا الرجل حتى لا يعرفَ الآلهة وتجهّمها في وجهِ من ينافسُها».

لكنّ كلماتِ «جلجامش» لاقتْ في نفسِه موقعاً، فقال:

- إنها الآلهة، وعلينا أن نطيعها، ولكن مَنْ أنت؟

- أنا «جلجامش».

- ماذا؟ «جلجامش» العظيم؟!

- أجل «جلجامش» أنا، لكنني لستُ عظيماً ما دمتُ سأموتُ اللحظةَ، أو بعد سنين. سيُنبّئُني «أوتنا» الخالد عن سرّ الحياة، فلا أموت.

وابتسمَ الملّاحُ ثانيةً، قضمَ من جذرِ سوسٍ في يده، وراحَ يعلكهُ في هدوءٍ، وهو يتأملُ هذا العظيم. قالَ الملّاحُ:

- لكن، ما لي أراكَ عجوزاً تَعِباً، وقد سمعتُ عنك أوصافاً لا يطلقونها إلّا على الآلهة؟ أرى الحزنَ قد سكنَ فيك، لماذا؟

- إنّه صديقي «أنكيدو»، أخي الصغير، أحببتُه حباً جمّاً، وصنعنا أمجاداً كبرى، لكنّه مات. أدركَه مصيرُ البشر، فهل أنتظرُ أن يحلّ بي ما حلّ به، فأرقد مثله ولا أفيقُ أبداً؟!

قالَ الملّاحُ بمرارةٍ، وهو يلوكُ ما في فمه:

- سنموتُ كلُّنا.

- لا تقلْ هذا. لنذهبْ إلى «أوتنا» الخالد. سأُعطيكَ ما تريد من ذهبٍ وفضةٍ متى عدتُ إلى «أوروك».

والتمعتْ على وجهِ الملّاح ابتسامةٌ حزينةٌ، وقد رأى حماسةَ «جلجامش» للخلود، ثم أشارَ إلى الألواحِ المكسورة:

- قد حالتْ قدماكَ دون عبورِك.

- ماذا تقصدُ؟

- لقد كسرتَ الألواحَ الحجريةَ التي رُسمتْ عليها مسالكُ المياه إلى «أوتنا».

وأمسكَ «جلجامش» برأسه، وقد ركبَه صداعٌ لئيم مفاجئ، وبقيا ساعةً صامتين. كان الملّاحُ الشاب، وهو يجلسُ الساعات الطوال مع نفسه في الغابة، أو في البحر، تنتابُه أفكارُ «جلجامش» هذه وتناوشُه. ساءلتْه نفسهُ مراراً عن الموتِ، ولماذا يموتُ البشر، ولا تموتُ الآلهة، الخبيثةُ منها خاصةً؟ ربتَ الملّاحُ يدَ «جلجامش»، وقالَ:

- قد أتذكرُ مسالكَ المياه. سأرسُمها على لوح جديد، ولكن هل تشركُني في سرّ «أوتنا» عن الخلود إنْ وهبَك إياه؟ لا أريدُ ذهباً ولا فضةً!

- أقسم، نعم، أقسم على ذلك دون تردد. لن أحلفَ بهذه الآلهة، فأنا لا أحبُّها ولا أحترمُها. ولكن هل تعني ما تقول؟

فهزّ الملّاحُ رأسَه مؤكداً، وفرحَ «جلجامش» كطفلٍ وجدَ لعبتَه الضائعة.

- إذاً، قمْ إلى أخشابِ الغابةِ، فاقطعْ منها مجاديفَ نحو مئةٍ وعشرين

مجدافاً، وليكنْ طول كُلٍّ منها ستين ذراعاً، ثم ليكنِ القارُ طلاءَها، والصفيحُ أطرافَها.

ولم يضيّع «جلجامش» وقتاً، فهبّ نشطاً، واندفعَ قوياً، نسي تعبَهُ، ولم ينسَ الخلودَ وصديقه. وصلَ الليل بالنهار، وهو يقطعُ الأخشابَ، يطليها، ويُغلّف أطرافها بالصفيح ، ولم يكن يرتاحُ إلّا ليتناولَ لقيماتٍ تحت إلحاح الملّاح الذي كان يجلسُ تحت شجرةٍ، يلوكُ جذور السوس، ويرسمُ على لوحٍ مسالكَ العبورِ في مياهِ الموت.

جلجامـش في بحـر المـوت

مرّ زمنٌ طويلٌ، لم يحسبْهُ «جلجامش»، اكتملَ فيه عددُ المجاديف، وزادَ عليها «جلجامش» أعداداً أخرى، حملَها مع الملّاح إلى طوف راسخ من تحت الماء، ثم ألحّ عليه «أورشنابي»، الملّاح، أن يأخذَ من قمصانِه واحداً يردُّ عنه غضبَ الشمس التي يتحداها.

قالَ «جلجامش»:

- لكنّ الشمس لن تغضبَ، إنّها فوقي دائماً، وقد لبّتْ رجائي مرات!

- لكنك لم تكنْ تنافسُها حينئذٍ على عبورِ مياه الموت!

رضخَ «جلجامش» للملّاح، ولم يرغبْ في أن يستعدي عليه الشمس. شقّ القميص، ولفّ به جذعه الضخم، ثم أبحرا في موج ما لبثَ أن علا كالجبال ثائراً حانقاً حتى كادَ يطوي الطوف تحت إبطه، لولا مهارةُ الملّاح، وصلابةُ «جلجامش»، ثم ظهرتِ الشمسُ فوقهما قويةً ملتهبةً صامتةً، وقد أنزلتْ في قلبِ «جلجامش» الشكّ والريبة، وداخلَه بعضُ الخوف، ثم عاودَه الإيمانُ بها وبرحمتِها، وبقيتْ صامتةً كأنها تقولُ له: «لماذا لا تقنعْ بالحياة مكاناً تعيشُ فيه، ثم تتركُه لغيرك؟!».

في اليوم الثالث، وصلَ الطوفُ إلى مياه الموت. كانت مياهاً ساكنةً كثيفةً عميقةً قاتلَةً باللمسِ كما وصفَها الملّاحُ. قالَ:



– خذْ مجدافاً يا «جلجامش»، واضغطْ بعزمٍ، لا تدعْ يدكَ تلمس المياه.

ركّز «جلجامش» طرفَ المجداف السفلي في قاع المياه، وضغطَ عليه بقوةٍ أكبر، فانسابَ الطوفُ ثقيلاً بطيئاً. وتابعَ الملّاحُ قلقاً:

– اترك المجدافَ الآن يا «جلجامش»، ولا تدعْ المياهَ تصل إلى أصابعك... هيا، خذْ مجدافاً جديداً... المياه... المياه... لا تدعها تقربكَ.

أخذَ «جلجامش» مجدافاً ثانياً وثالثاً ورابعاً، ثم أخذَ المجدافَ العشرين والخمسين والثمانين، ولما ضغطَ على المجدافِ العشرين بعد المئة، كانت الجزيرةُ قد ظهرت، واستمرَّ يأخذُ من المجاديفِ الأخرى حتى استنفدها، فنزعَ «جلجامش» قميصَه الذي لفّ به جذعَهُ، وحَلَّ حزامَه، ورفعَ الرداءَ شراعاً يخفقُ في هواءٍ رخيٍّ أرسلتْهُ الشمسُ، وسارَ الطوفُ إلى الشاطئِ، وصرخَ الملّاحُ و«جلجامش» معاً صرخةَ الفرح والنصر، لقد وصلا إلى غايتِهما، وقريباً يعرفان سرّ الخلود، فيتقاسمانه ويذيعانِه بينَ الناس كما قرّرَ «جلجامش» صادقاً.

كان «أوتنا» الخالد، قد رفعَ منظارَه نحو البعيد، فرأى الطوفَ يأتي من مسلكٍ غير مسلكه، لمحَ فيه راكباً غريباً، وحضّرَ توبيخاً قاسياً للملّاحِ، إذ عصى أوامرَ الآلهة، وأتى بغريبٍ إلى جنةِ الخلود.

جلجامش في جنّة الخُلد

نزلَ «جلجامش» والملّاح إلى رمالِ الجزيرة، لم تكن كباقي الجزر، كانت جزيرة الخلد عند فم الينابيع، تقيمُ أشجارُ الفاكهة فيها مثمرةً أبداً، فلا تقعُ العين على شجرةٍ دون فاكهتها، تتجاورُ أشجارُ البرتقال مع أشجار التفاحِ ودوالي العنب والدراق مثقلةً بثمارها اليانعة، وامتدت حقولُ التوت الأرضيِ (الفريز) حمراءَ الشفتين، واختلطت خضراواتُ الشتاءِ مع خضراوات الصيف والربيع والخريف، وأزهرتْ حقولٌ أخرى من الأزهار والرياحين حتى فاحتِ العطورُ مختلطةً منسجمةً، ثم متفردةً كسلى زكيةً، وتمشّت الأنهارُ حرةً طليقةً تتلوى بين الخضرة النضرة، تطيرُ فوقها طيورٌ عجيبة مغردة، لم يرَ «جلجامش» مثلها.

وقفَ الملّاحُ «أورشنابي» يتملّى الجمال حولهُ، وتتابعُ عيناه فتنةً تتجدّدُ كُلَّ مرةٍ ينزلُ فيها الجزيرة، وأما «جلجامش»، فمسحَ المنظرَ بعينهِ سريعاً، ثم شدّ صاحبه، ليلحقا بـ«أوتنا» الخالد.

قطفَ الملّاحُ قرطاً من الموز، وراحَ يلتهمُه موزةً وراء أخرى، وأكلَ «جلجامش» على عجلٍ. كانا جائعين منهكين، ولكن «جلجامش» رفضَ كلَّ استراحة، وحثَّ الملّاحَ على الإسراعِ لملاقاةِ الخالد. كان ينتظرُهما عند كل مفترقِ طريقٍ، غلمانٌ يفتحون أذرعهم مرحبين، ويدلّونهم على الطريق.

لـمّا مَثُلا أمام «أوتنا» الخالد، كان هذا جالساً على أريكةٍ طويلةٍ وثيرة.



وقفَ «جلجامش» عن بعدٍ مُتعجّباً متأمّلاً:

- هذا أوتنا الخالد، ماذا أرى؟!

كان «أوتنا» عجوزاً قد ضمرَ جسده حتى صارَ بحجم غلام، وقد شفّ جلدُه عن عظمه، يجلسُ على أريكتِه هامداً، وظهرَ الضَجرُ على وجههِ، والإعياءُ في عينيه، على الرغمَ من الرفاهِ الذي يغمرُه.

كانت نفسُ «جلجامش» قد صوّرتْ له «أوتنا» رجلاً قوياً يشيرُ إلى المزارعين كيف يزرعون، ويركضُ إلى العمالِ يحثُّهم على إتقانِ حرفتِهم، ويرفعُ يَدَهُ إلى البنّائين، ليرتفعوا بأبنيتهم نحو الشمس.

تخيّلهُ مقاتلاً عنيداً، يتقدمُ الجيوش، ليقهرَ الشرور، ولكن ماذا يرى «جلجامش» في «أوتنا» الآن؟! حتى إنّ صوتَهُ لا يبين، ورأى غلماناً يرفعونَ ظهره، ليضعوا مخداتٍ وراءهُ تسندهُ، ولم يستطعْ أن يسوّي غطاءه، فرفعهُ له أحدُ الغلمان.

وتقدّمَ الملاّحُ من «أوتنا»، فقبّلَ يدهُ باحترامٍ ومحبّةٍ، والتفتَ إلى «جلجامش» يحثُّه على الاقتراب قائلاً:

- أيّها الخالد! أقدمُ لك «جلجامش» العظيم. قطعَ البراري والبحار، وقتلَ الوحوش والآساد، واجتازَ مياه الموتِ، ليصلَ إليك، ويعرفَ سرّ خلودِك.

حدجَ «أوتنا» الخالدُ الملاّحَ بنظرةٍ قاسيةٍ بعدما تملّى «جلجامش»، ورحّبَ به، ثم خاطبَ «أورشنابي»:

- وأما أنت، أيّها الملاّح! فاللعنةُ عليك، إذ أتيتَ بغريب معك، وإن كان «جلجامش»، ألم أحذرك من قبل؟ هل تسعى إلى غضبِ الآلهة؟ ألا تخافُها؟ إن هي غضبتْ، أغرقت الجميعَ في هلاكٍ... لا أخافُ على نفسي منها، وقد

ولّى بي العمرُ، لكنني أخشى على الإنسانيةِ من غضبِها. هل أستطيعُ أن أنقذَها كما فعلتُ من قبل؟ اذهبْ لعنتكَ الآلهة.

تراجعَ الملّاحُ خجلاً، وهو يعاتب الآلهة التي تنسى شؤون الخلق ومشكلاتهم، لتعاقبَ ملّاحاً على الإبحارِ بغريبٍ يسعى إلى إدراك سرّ الحياة.

أشارَ الخالدُ إلى «جلجامش»، فتقدمَ مسرعاً إليه، نظرَ «أوتنا» متعجباً، وقالَ:

- أنتَ «جلجامش» العظيم؟! سمعتُ عنك كثيراً، وأحببتُكَ، وأسفتُ لموتِ صديقك «أنكيدو»، ولكن ماذا فعلتَ بنفسِك؟!

نظرَ «جلجامش» إلى نفسه، كان قد صارَ شيخاً مترهلاً، احترقَ جلدُه من أثر الشمس، تسترُ وسطَه قطعةٌ من الجلدِ مهترئة، وتملأُ لطخُ الزيتِ والقار يديه وصدره وساقيه، وقد استرسلَ شعرهُ المنفوشُ على وجهه. قالَ «جلجامش»:

- كيف لا أكونُ كذلك؟ كيف لا تتبدلُ ملامحي، ويستقرُّ الحزنُ في قلبي؟ كيف يصبحُ من سارَ طويلاً، وهامَ في البراري وحيداً؟ منْ عاشَ في نفقِ الظلماتِ دهراً، وقطعَ البحارَ سريعاً، ليصلَ إليك، بعدَ أن ماتَ أخوه «أنكيدو»، صديقُهُ الطيّب الذي سارَ مَعهُ إلى المهالك؟

ماتَ «أنكيدو»، فانتابني هلعُ الموتِ، وثقلَ صدري، ومن النوم العذبِ لم ينلْ وجهي، سكنَ الوجعُ مفاصلي، وبليَ جسمي، حتى وصلتُ إليك.

تأملَ «أوتنا» «جلجامش»، وتأثّرَ لمصابِه. حطّ سكونٌ رقيقٌ بين الرجلين. أشارَ «أوتنا» إلى غلمانِه، فحملوا لـ«جلجامش» أريكةً وثيرةً، جلسَ عليها، فأنّتْ تحت ثقله وتعبه. قال «أوتنا»:

- تريدُ أن تعرفَ قصة خلودي؟ سأقُصُّها عليك.

قصة «أوتنا» الخالد

قال «أوتنا»:

- رأت الآلهةُ، يوماً، أنّ ما بين يديها من طعام وشراب قليلٌ، ولما سألت الخدمَ، أنبؤوها أن بني البشر يتكاثرون، فاجتمعتْ الآلهةُ، وائتمرت فيما بينها، لتقضي على بني البشر بطوفانٍ عظيم، فيحلو لها العيش بمباهج الحياة، إلّا إلهاً واحداً، اعترضَ وقال: «لو نُنزل بهم مرضاً، أو كارثةً تقتل بعضَهم، أو حرباً تبيدُ أكثرَهم، أما أن نقضيَ عليهم جميعاً، فهو العار!».

صرختِ الآلهةُ في وجهه، وهدّدتْهُ، فجبُنَ وسكت، لكنه جاءَ سراً إليّ، يَحُثُّني على بناءِ سفينةٍ أحملُ فيها من كلِّ زوج بهيج، إن إنساناً، أو حيواناً، أو نباتاً، فأسرعتُ منْ ساعتي أبتني سفينةً ضخْمةً من أخشابِ بيتي، يساعدُني بعضُهم.

حملتُ فيها ما شاءت الحياةُ وما تتطلّبهُ، حتى إذا تيسّرَ لي ذلك. وكان الطوفانُ يتقدمُ، مشيتُ بسفينتي في موج مرعبٍ كالخيال في عُسرِه وضيقِه، ومرّ زمنٌ حسبنا أننا هالكون، فصلّيناً وتمسكنا بالمجاديف، ولمّا ظنتِ الآلهة أن أمرَها قد قُضيَ وأهلكتِ البشرَ، انحسرت المياهُ، وكانت سفينتي تقتربُ من شاطئٍ أسرعنا إليه بمجاديفنا، نزلنا من السفينة، وبدأتُ حياةً جديدةً بمَن معي من البشر، وما معي من حيوانٍ ونبات. بعدها كافأتني الآلهةُ، وقد عرفت أنْ لا أهميةَ لها إنْ لم يكن ثمةً بشرٌ يعبدونها ويخافون

منها، فخلّدتني وزوجي في جزيرةِ الخلد هذه كما تراها.

سكتَ «أوتنا» الخالد، وقد استبدّ به تعبٌ. سقاهُ غلامُه ماءً، فانتعشَ، توجّه ثانيةً إلى «جلجامش» الساهي، قائلاً:

– والآن، تفكّرْ فيما أقولُه يا «جلجامش» ولا تُجبني سريعاً. أيُّ بيتٍ لم يُدركه الفناء؟ وأيُّ ميثاقٍ لم يُصبه البلاء؟ يأتي كلُّ جيلٍ، فيبتني منازلَه وفقَ حاجاتِه ومناخِه، ويصدرُ قوانينَ تليقُ بظروفه، وتناسبُها.

اعترضَهُ «جلجامش» ممتعضاً:

– ولكنّ البشر يختلفون عن البيوت والمواثيق و...

– ها قد تعجلتَ يا «جلجامش». انظرْ إليَّ. ماذا يفيدُني الخلودُ الذي وهبتني إياه الآلهة؟ هأنذا قابعٌ على أريكتي، فلا أستطيعُ أن أنقلبَ على جنبي، إنْ لم يساعدني غلامي... انظرْ إلى أحفادي، ها هم أولاءِ يملؤون الدنيا حياةً وغنى، بل فيهم من هو أمهرُ مني. انظرْ ها قد جاءَ تمّوز. منْ هذه الحسناءُ التي معه؟

وصلتْ ضحكاتُ تمّوز، ومن معهُ قبل أن يصلا إلى جدهما، قبّلاهُ وسعيًا إلى بركاتِه، سلّما على «جلجامش» باستغرابٍ وفضولٍ، فلم يمرّا بمثله في ضخامتِه، وقذارتِه، وحزنِه. قال «أوتنا» يخاطبُ حفيدهُ:

– والآن، هل نجحتُم في بناءِ سدكم العظيم؟

فأجابَ الشابُ بمرحٍ:

– وهل تشكّ، يا جدي، في مقدرتنا؟ نحنُ أحفادُك، قد جعلنا جسمَ السد مائلاً قليلاً، ثم بنينا أمامه، على بُعدٍ، جدارَ دعم قوي يحجزُ مياهَ الأمطار، فلا تذهبُ قطرةٌ منها إلى البحر. سنحتالُ على الطبيعة

متقلبةِ المزاج.

- أحسنتم يا ولدي. ومنْ تكون هذه السمراءُ الجميلة؟

- إنها ديالى خطيبتي، جئتُ بها، أعرّفكَ إليها، لتباركها. ديالى تُعلّمُ الأطفالَ الغناء والقراءة والحساب.

- بوركت معها.

ونادى «أوتنا» زوجه، فجاءتْ عجوزٌ، همسَ في أذنها، فعادتْ تحملُ علبتين، فتحَ «أوتنا» الأولى، ورفع منها فأساً صغيرةً قال إنها لن تتكسر وهي هدية ترمز الى العمل ، قدمَها إلى حفيدهِ قائلاً:

- لا تجعلِ الوقتَ يمرّ دونَك، ولا تجعلْه يرحل وحده، املأه سعياً حميداً. امرحْ مع عروسك، وابتهجْ مع أصدقائك، ولا تنسَ عملك.

ثم فتحَ العلبةَ الثانيةَ، فلمعتْ قيثارةٌ، أشارَ إلى ديالى، فتقدمتْ نحوه، قالَ لها:

- وهذه لكِ. كوني قربَ تمّوز. اعملا معاً وامرحا، وأكثرا من البنين والبنات.

ولا تتوقفي عن الغناء. نادتْها جدتُها، فالتفتت إليها ديالى:

- وهذا الخاتم الفيروزيّ لك.

فقبلتْ ديالى الخاتم سعيدةً شاكرةً، وهي تقولُ:

- وكيف عرفتِ أنني أحبُّ الخواتم ياجدتي؟.

وضحكتْ بعذوبةٍ، وتطلعتْ إلى تمّوز. تخاصرا، وانطلقا بحيويةِ الشباب ومرحِه.

عندما اختلى «أوتنا» بـ«جلجامش»، قالَ له:

- لقد وهبتْكَ الآلهةُ عزةً ومالاً ورعيّةً صالحةً، وقدّرتْ لك السلطان والسيادة على البشر. أعطتكَ الآلهةُ قوةً لا نظيرَ لها، ومالاً لا ينقص، لا يكرُّ مثلكَ أحدٌ، ويفرُّ منك عدوك مهما بلغَ من القوةِ والعناد. ملأتَ الدنيا ضياءً وعمراناً وحقولاً، فإن جاءَ أجلكَ، فلا تتأخر عليه ولا تجزع منه.

لم تعقم النساءُ، لتلدَ مثلك في قوتك وعزيمتك، وقد يأتي مَنْ هو أفضلُ منك، فلا تخفْ من الموت يا «جلجامش»، ولا تخفْ على الدنيا من بعدك، ستتقدمُ الحياة، ويعيشُ قومُك، يتعلّمون من خبرتهم، ويضيفُ عليها أبناؤهم. ها هم أولاءِ أحفادي يبنون ويزرعون ويصنعون، وهذه الدنيا أحيتها أجيالٌ، وأضافت إليها أجيالٌ أخرى بهاءً وازدهاراً.

أمسكَ «جلجامش» برأسه، وقد أرهقته حقيقةُ ما يقولُ «أوتنا» الخالد، غمرتْه قناعةٌ حزينةٌ، إنّ ما يقولهُ «أوتنا» لحقٌّ صادق. أردفَ «أوتنا»:

- تأمَّل الدنيا. ماذا أفيدُها وأنا على أريكتي؟ وأنتَ انظر إلى نفسِك، وقد ضيعتَ سنواتٍ من عمرك تلوبُ وتفتشُ لأجلِ يومٍ آخر في الحياة، لتعملَ فيه. ضيّعتَ وقتك، وأضعفتَ روحَك وأنتَ تفكرُ في الموتِ. كم من الأعمال ضيعتَ في هذه السنين اللائبة؟! انهض الساعة وعد إلى «أوروك»، واملأها نشاطاً مثمراً ما بقيَ لك من العمر. ابذلْ طاقتَك، واصرفها كلَّها في عملٍ زاهرٍ، فهو خلودُك يا «جلجامش».

أطرقَ «جلجامش» مفكراً في كلام «أوتنا» متأملاً. ولمستْ امرأةُ الخالد من «جلجامش» حزناً، فألحَّتْ على زوجها هامسةً أن يدلَّ

الضيفَ العظيمَ على النبتةِ رأفةً بكبرِ سِنِّه وعلياء همّته.

نظرَ «أوتنا» بعيداً، ثم تطلعَ إلى «جلجامش» عميقاً، فوجدَهُ إنساناً يسعى إلى الخلودِ، لا حبّاً في السلطان، أو الملذات، بدا لهُ «جلجامش» رجلاً مهموماً، ضيّعَ عمرَهُ ليقبضَ عليه، فيقوم بالأعمالِ التي اتفقَ وصديقُه على إنجازِها، فتعود بالصلاحِ والهناءة على قومِهِ. قالَ «أوتنا»:

- لمّا رأيتُ فيك الصدقَ، قررتُ أن أدلّكَ على نبتةٍ تعيدُ إليك شبابك، فتنهضُ نحو الأعمال التي تركتَها في غمرة سعيكَ إلى الخلودِ.

- بوركتَ «أوتنا» الخالد. أين هي هذه النبتةُ؟ لن تكونَ لي وحدي، سأجعلُها في متناولِ شيوخ «أوروك» كلّهم، لنعودَ معاً، ننشطُ، فنزرعُ ونبني ونحفرُ الآبار، ونقهرُ الأشرار.

فزادتْ محبة «أوتنا» لِـ«جلجامش» العظيم. أشارَ إلى غلامٍ ليدلَّ «جلجامش» على مكانٍ، بعينهِ يغوصُ فيه، ويقبضُ على النبتة، وتوجّه إلى الملّاحِ المطرود:

- دعْهُ، أيّها الملّاحُ، يغتسل أولاً.

ثم التفتَ إلى «جلجامش»:

- لا تدع القذارة تقربْك، بل ابتعدْ عنها، يبتعد عنكَ المرض والضعف. انزعْ جلدَ الحيوانِ هذا عن وسطك متى اغتسلتَ.

ثم أشارَ بيدهِ، فجاؤوا بقميصٍ عريضٍ نظيفٍ قشيبٍ، يفوحُ بعطر الخزامى، فمسحَ عليه «أوتنا» الخالد قراراً، وقرأ عليه أسراراً، ثم قالَ لـ«جلجامش»:

- حينما تغسلُ شعركَ وجسمكَ، وتصبحُ كالثلج في طهارتِه البسْ هذا الثوبَ الجديدَ الذي لن يبلى أبداً حتى تصلَ إلَى «أوروك».

تناولَ «جلجامش» الثوبَ من «أوتنا» ممتناً شاكراً، وركضَ خلفَ الملّاح مسرعاً. غسلَ شعرَه حتى استرسلَ سلساً نظيفاً، وفركَ جسمه حتى صارَ يلمعُ تحت ضوء الشمس، ثم لبسَ ثوبَه القشيبَ الذي لا يبلى، وحثّ الملّاحَ ليسرعا وراء الغلام إلى النبتة.

زهـرة الشــباب

لـمّا وصلا إلى النهر، سارَ «جلجامش» على ضفته طويلاً، فرأى قناةً تجري فيها مياهٌ وافرةٌ عميقةٌ، فعرفَ فيها مكان النبتة. ربطَ «جلجامش» أحجاراً في قدميه، وغاصَ في المياه. كانت مياهاً نقيةً باردةً كالثلج، فتقلّصتْ عضلةُ ساقه، وانتابَه ألمٌ موجع. راحَ يسبحُ بطيئاً، لكن حثيثاً، وهو يسحبُ ساقَهُ، لم تمر به صخرة كبيرة، أو صغيرة لم يبحث وراءها. كان يسبحُ هنا وهنالك، وهو يدلّكُ ساقه بين آن وآخر، فعادتْ بعضُ الطراوة إليها.

كان «جلجامش» قد وضعَ علامةً عند مكانِ غوصه، فلا يبتعدُ عن الملّاح الذي ينتظرهُ في الأعلى، ثم راحَ يدورُ ويدورُ بإصرارٍ وحماسة يخالطُها قلقٌ رقيقٌ كعهد النفوسِ الكبيرةِ التي تسيرُ نحو غايةٍ محددة نبيلة.

كان قد آمنَ بكُلِّ ما قالَه «أوتنا»، لذا لم يتسربْ إليه شكٌّ في نيّته. بذلَ له زهرةً تعيدُ إليه شبابَهُ، لكنه قالَ مؤمناً: «ولكن عليّ أن أبحثَ وأغوصَ أعمقَ لأصلَ إلى النبتةِ، إنها، بالتأكيد، في موضعٍ من هذا النهر».

وشهقتْ نفسُه:

- «إنها هي. وجدتُها. ما أروعَ «أوتنا» في وصفه»!

كانت النبتةُ زهرةً زرقاء بهيةً بحواف بيضاء متألقةٍ، قد وقفت منتصبةً على ساقٍ رشيقةٍ طويلة. سبحَ «جلجامش» إليها، وانتزعها بقوةٍ



المُحِبِّ الولهان، نسيَ أشواكَها التي حدّثهُ «أوتنا» عنها. وخزتْه الأشواكُ حتى سرتْ القشعريرة إلى رأسه، آلمَتْهُ ونزفتْ أصابعه، لكن لم يأبه.

حلّ رباط الحجارة، فانسابَ كالمغزل نحو الأعلى فرحاً سعيداً كصياد جائع اصطادَ سمكةً. ملأت ضحكتُه المكان، وترددت أصداؤها طويلاً. قبّلَ الملاّحَ مبتهجاً، سيحملُ هذه النبتةَ إلى «أوروك»، لن يتناولَ شيئاً منها الآن، سيتقاسمُها مع شيوخِ «أوروك» وحكمائها، ليعودوا جميعاً شباباً يسعون في جنبات الحياة.

نظرَ الملاّحُ إلى «جلجامش» معجباً محبّاً، وقد رآهُ يعودُ مؤمناً بالحياةِ لا يهابُ الموتَ. قالَ متردداً:

- «جلجامش» العظيم! هل تجعلُني من رعيّتك حينما تصلُ إلى «أوروك» ما دامَ «أوتنا» الخالدُ قد طردَني خوفاً من الآلهة؟

- بالتأكيد، يا أخي! لقد وجدتُ عندك المؤازرةَ والمحبةَ، فكيفَ أنساك؟ هيا. تعالَ معي.

سارَ «جلجامش» مع الملّاح طويلاً في الشمسِ المحرقة والبراري الفسيحة، ولم يتوقفا إلّا لطعامٍ سريعٍ، أو نومٍ خفيف. وبعد زمنٍ وصلا إلى بركةِ ماءٍ. كان الغبارُ يغطيها، وتذكرا نصائحَ «أوتنا» عن النظافةِ، خلعَ «جلجامش» قميصَه القشيب، ومددَ عليه الزهرةَ الزرقاءَ التي سمّاها «زهرة الشباب»، ودعا صاحبَهُ إلى الاغتسالِ، فنزلا معاً البحيرة.

ولكن، ماذا ينتظرُ «جلجامش» بعدُ من قهرٍ؟ وأيُّ صبرٍ يلفُّ به رأسَه أمام الغدرِ؟ وأيُّ دموعٍ تكفيه لتشفي حزنَه؟!

ها هو ذا قد تخلّى عن فكرة الخلود بعد لقائه بـ«أوتنا»، وقنعَ بالحياةِ

مكاناً للعمل والمرح. لن يفكرَ في الموت، سيصل إلى «أوروك» يأكلُ مع شيوخِها من النبتة الساحرة، «زهرة الشباب»، لينطلقوا نحو الحياةِ وحدَها، الحياةِ المثمرةِ الزاهرة.

كان «جلجامش» وهو يقطعُ البحيرةَ سباحةً، ينظرُ بين الفينة والأخرى إلى زهرتِه مطمئناً عليها، لكنه في عودته من طرفِ البحيرة، رأى حيةً تسعى نحو الزهرة، كانت قد تشممت رائحتَها، فتسلّلت خارجةً من الماء.

دارت الحيةُ حولَ الزهرةِ تتشممُها، وكان رأسُها ينتصبُ عالياً متأملاً، ثم يعودُ، فيقتربُ من الزهرةِ، وهي تلتفُّ حولَ هذا الاكتشافِ العظيم، لترفعَ عنه سرّهُ. كانت الحيةُ تشمُّ الزهرةَ عميقاً مراتٍ ومرات، لتعودَ، فتتأمل رائحتها السحرية العجيبة، وما تأخرت، انقضّتْ عليها تلتهمُها، فبلعتها في لقمة سائغة، ثم راحتْ تتلوى زاحفةً نحو المياه متأنيةً، وهي تحسُّ بجلدها المهترئ القديم يتشققُ ويتمزقُ لتستبدلَ به جلداً جديداً لامعاً. بدتْ متباهيةً بثوبِها الجديد، وهي تنزلقُ في المياه.

عقدتْ المفاجأة لسانَ «جلجامش»، وهو في المياه عند طرف البحيرة القصيّ. رفعَ يدَهُ محتجاً، ثم مهدداً، فركَ عينيه، ولم يصدق ما رآه، ثم صرخَ باكياً مقهوراً، التفتَ إليه الملاّحُ مذعوراً، فأشارَ إلى الحيّةِ، و«زهرة الشباب» المسروقة.

خرجا من البحيرة، والحزنُ يغسلُهما. جلسا عند حافتها مطرقين مذهولين. قال «جلجامش» ودموعهُ تفيضُ على وجههِ التعس:

- سنواتٌ وسنواتٌ سعيتُ فيها من أجل حيّة، لتجدد جلدها وشبابها!، «أوتنا» الخالد، هل أعودُ إليك لتعزيني؟ لتسكبَ فوقي من نورِ حكمتكَ؟ هل تجتمعُ الآلهةُ من أجلي لتصريف أمري؟ لا... لا... لا أريدُ الآلهةَ.

جلجامش يقع على الخلود

أمسكَ الملّاحُ بيدِ «جلجامش» مواسياً، يخففُ عنه وطأة ضياع الشباب. سارَ معه حيث الثياب. قال الملّاحُ:

– هل تعرف، يا «جلجامش» العظيم، في سرقةِ الحية للنبتة حكمةٌ أرسلتْها الطبيعة؟

نظرَ بعيداً، ثم تابعَ:

– كان أبي حكيماً شيخاً جليلاً، يقولُ لي، وهو يرى قلقي وأسفاري: «يا بنيّ! حول الإنسان دائرةٌ هي الحياة، عليه أن يعملَ فيها ما استطاعَ، قد تصغرُ الدائرةُ وتضيقُ، وقد تكون وسيعةً، فليعمل فيها كأنه يعيشُ إلى الأبدِ، أو حتى الغد».

هزّ «جلجامش» رأسَه، ودارتْ عيناه في المكان حولَه، وبدا مصدقاً لما قالَه الملّاحُ، الذي تابعَ قوله:

– إذاً، لننهضْ ونركضْ نحو «أوروك». اجعلني صديقاً، أو أخاً لك، كما كانَ «أنكيدو».

– «أنكيدو»... «أنكيدو»... لطالما جاءَ إليّ في المنام يحثّني على النسيان، قال لي مرة في الحلم: «إن كنتَ تحبُّني حقاً، يا (جلجامش) اتركْ السعيَ وراء الخلود، وحقق الأعمال التي نوينا معاً أن نقومَ بها، أعرفُ حينها محبتكَ لي. في الدنيا إخوةٌ لك وأخواتٌ يسيرونَ معك في طرقاتِ الحياة، تنبشون أشواكها، وتزرعونها رياحين، تسقيها أجيال

بعدكم، وتزرعُ غيرها».

كان «جلجامش» في طريق عودته يمشي مشيةَ الرجلِ الذي عرفَ دربَه وحلّ سرّهُ، عادَ ممتلئاً بالحكمةِ التي عملَ بها: العمل الصالح... العمل الصالح، ثم قالَ لصديقهِ الجديد:

- هلم بنا، نخلّدُ الإنسان الكريم في العملِ الجليل، فقد باتَ العمرُ قصيراً.

سكتَ قليلاً، ثم قالَ:

- سأجعلُ «أوروك» تنتفضُ بدماء الحرية والنشاط، سأجزلُ العطايا للعمّال والعاملات، سأعلنُ مكافآت للنساءِ الصالحاتِ والرجال الأكفياء، سأصدرُ قراراً بأن ينشئ كلُّ أبٍ واحداً من أبنائه مثلَه يقومُ بحرفتِه لتكون متصلةً مستمرةً.

- حسناً تفعلُ يا «جلجامش» العظيم. حسناً تفعلُ.

وانطلقا يركضان ويختصران المسافات، طارت بهما الطيورُ القويةُ، وركضتْ تحتهما الوعولُ الرشيقةُ، سبحتْ بهما الحيتانُ المخلصةُ بعد أن عرفتْ جميعُها غايتَهما في الوصولِ إلى «أوروك» للعمل فيها حتى نهاية العمر.

لمّا وصلا مشارف «أوروك» دُهشَ «جلجامش»، إذْ رأى الحياةَ فيها تمورُ نوارةً متألقةً، فهمسَ لنفسه: «بوركتِ أيتها الرعيةُ الصالحةُ».

رأى المزارعَ نضرةً، وقربَها سدودٌ مختلفةٌ على الفرات، تحجزُ بعض مياهه في بحيرات فاتنات. سمعَ أصوات الأنوالِ تنسجُ وتحوكُ، ووصلَ إلى أذنيهِ صاخباً الحديدُ والسندان.

قطعا مسافةً أخرى، فوصلتْهُ ضحكاتُ الأطفال، تزقزقُ سعيدةً مطمئنةً، فابتهجتْ نفسُهُ، وتذكّر ولدهُ. لا بُدَّ أنه كبيرٌ الآن.

لم تتوقف الحياةُ في سفرِ «جلجامش»، ولن تموتَ في رحيله... لن تتوقفَ الحياةُ... لن تتوقفَ الحياةُ.

ضحى مهنا

- إجازة في الأدب العربي من جامعة دمشق ١٩٧٠.
- عضو في اتحاد الكتّاب العرب منذ عام ١٩٩٤.
- تكتب القصص والمسرحيات والسيناريو للأطفال والفتيان، وتكتب المقالة والقصص القصيرة والرواية.
- شاركت في ندوات حول الأطفال وأدبهم، ونالت الجائزة الأولى لأدب الأطفال في الشارقة عام ٢٠٠١ عن مجموعتها «حذاء الساعة».

صدرَ لها:

- الجناحان، دار الحوار، اللاذقية.
- الحكم الباطل، دار الحوار، اللاذقية.
- السباق، دار الحوار، اللاذقية.
- الجديلة، دار المتنبي، دمشق.
- المحاسبون الصغار، دار المتنبي، دمشق.
- حورية النهر، دار المتنبي، دمشق.
- حسان والفراشة، دار المتنبي، دمشق.
- قالت الشمس، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق.
- الطريق، وزارة الثقافة، دمشق.
- النافذة، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق.
- الرصيف الأبيض، دار المتنبي، دمشق.
- ميسون (مسرحيات للفتيان)، دار الحارث، دمشق.

سمارا الحناوي

- خريجة كلية العلوم /قسم الرياضيات/جامعة دمشق/ ٢٠١٨م وخريجة معهد أدهم إسماعيل للفنون التشكيلية/ ٢٠١٧م.

- شاركت في ورشتَيّ عمل «كيف نرسم كتاب للأطفال؟» في عامَيّ ٢٠١٧ و٢٠١٩ برعاية وزارة الثقافة وبإشراف الفنانة التشكيلية «لجينة الأصيل».

- عملت منذ عام ٢٠١٧ في مجال رسم قصص الأطفال، و نشر لها في عدّة مجلات ودور نشر سورية وعربية متخصصة بأدب الطفل منها: (مجلة أسامة، ومجلة شامة، ومديرية منشورات الطفل، ومجلة ألوان، ودار فنون).

- رسمت كتباً مطبوعةً عدّة نُشِرَت في سورية والأردن منها: (كتاب قلوب صغيرة، وكتاب الشجرة والخروف).

-شاركت في الرسم للمناهج السورية / المرحلة الإعدادية للعام ٢٠١٨ بالتعاون مع مركز تطوير المناهج السوري.

- حصلت على الجائزة الثانية من مديرية ثقافة الطفل في اليوم العالمي للحيوان عام ٢٠١٠ عن تأليف قصة «همة نورس».

- حصلت على جائزة ضمن مسابقة أجمل عشرة رسوم لقصة بعنوان «Sarah's Journey» لمنظمة Kidnovation في ستوكهولم.

الفهرس